

الباب السادس عشر

النزاع بين الفلسفة والدين

الفصل الأول

المثاليون

كان عصر بركليز شبيهاً بعصرنا هذا في تنوع أفكاره واضطرابها ، وفي تمحيده لجميع المعايير والعقائد التقليدية القديمة ؛ ولكن ما من عصر من العصور يضارع عصر بركليز في كثرة آرائه الفلسفية وعظمتها أو في غزاراتها وفي القوة التي كانت تناقش بها . فقد كانت كل المسائل التي يضطرب بها العالم اليوم تدور على ألسنة الناس في أثينة القديمة ، يناقشها الناس بجرارة وحماسة روعت جميع اليونان ما عدا شبابهم . وقد حرمت كثير من المدن — وخاصة اسپارطة — أن يبحث الجمهور المسائل الفلسفية بسبب ما كانت تثيره من « حقد ، ونزاع ، وجدل عقيم » ، على حد قول أثنيوس . ولكن « بهجة » الفلسفة « العزيزة » كانت تستحوز على خيال الطبقات المتعلمة في أثينة ، فكان أغنياء المدينة يفتحون أبواب بيوتهم وأبائهم للباحثين كما كان يحدث في عهد الاستنارة في فرنسا ، وكانت الولايم تولم للفلاسفة ، والبحوث الطريفة يصعق لها كما يصفق للضربات القوية في الألعاب الأولمبية .

ولما أن أضيفت حرب السيوف إلى حرب الألفاظ في عام ٤٣٢ ، استحال هياج العقول الأثينية إلى حمى احترق فيها كل ما كانت تتصف به تلك العقول من اعتدال وحكمة . وخبث نار هذه الحمى بعض الوقت بعد استشهاد سقراط

أوبالأحرى توزعت من أثينة على غيرها من مراكز الحياة اليونانية . وحتى أفلاطون نفسه الذى عرف ما بلغت هذه الحمى وما أدت إليه من أزمات استنفدت قواه بعد أن دامت هذه الحال الجديدة ستين عاماً كاملة ، وكان يحسد مصر على إيمانها الدينى واستقرار أفكارها وهدوئها . ولم يشهد عصر من العصور المقبلة إلى أن حل عصر النهضة ما شهدته هذا العصر من حماسة فى التفكير وقوة فى النقاش .

وكان أفلاطون يمثل أعلى منزلة وصات إليها الحركة التى بدأت ببارمنيدس ، وكان لها بمثابة هجل Hegel لكانت Kant ؛ ومع أنه لم يكن يتورع عن التنديد بأراء الفلاسفة ؛ فإنه لم ينقطع يوماً ما عن تعظيم أبيه الميتافيزيقي . وفى بلدة إيليا الصغيرة القائمة على ساحل إيطاليا الغربى نشأت فى عام ٤٥٠ ق . م . الفلسفة المثالية التى أثارت فى كل قرن من القرون المقبلة حرباً شعواء على المادية (*) ؛ وقلدت فى بوتقة التفكير الأوروبى مشكلة المعرفة الغامضة العجيبة ، ومشكلة الفرق بين الظاهر من جهة وما لا يعرف ولا يمكن أن يعرف من جهة أخرى ؛ وبين الحقيقى غير المنظور والمنظور غير الحقيقى ، وظلت هذه الأفكار تغلى أو تغلظط طوال تاريخ اليونان القديم وفى أثناء العصور الوسطى حتى انفجرت مرة أخرى فى عصر «كانت» وعلى يديه وأضحى ثورة فكرية عارمة . وكما أن هيوم Hume «أيقظ» كانت كذلك كان أكسانوفان Xenophanes هو الذى دفع بارمنيدس إلى الاشتغال بالفلسفة ؛ ولعل عقل بارمنيدس كان واحداً من عقول كثيرة أثارها قول أكسانوفان إن الآلهة ليست إلا أساطير ، وإنه لا توجد لإحقيقة واحدة هى العالم والله جميعاً . كذلك درس بارمنيدس مع الفيشاغورين وسرى فيه شغفهم بعلم الفلك ، ولكنه لم يضل فى بيداء النجوم ،

(*) ولقد راجه المنود هذه المشكلة قبل ذلك بزمان طويل ، ربقوا بارمنودين إل آشمر عهدهم ، ولعل نزمة اليوبانوشاد Upanishads المنفردة لعاطفية قد تسربت إل بارمنيدس من طريق أيولها أو فيشاغورس .

بل كان كعظم فلاسفة اليونان يهتم بالشئون الحية ومنها شئون الدولة . وقد كلفته إيليا أن يضع لها قوانينها ، فلما وضعها أعجبت به إعجابا جعلها تطلب إلى جميع قضاتها أن يحكموا في جميع القضايا بمقتضاها^(٣) . ولعله أراد أن يرفه عن نفسه في حياته المفعمة بالعمل فأنشأ قصيدة فلسفية في الطبيعة بقى منها إلى الآن نحو مائة وستين بيتاً تكفى لأن تجعلنا نأسف لأن پارمنيدس لم يكتب نثراً . وفي القصيدة يعلن الشاعر ، وهو يغمز بعينه ، أن إلهة قد أوحى إليه أن الأشياء جميعها وحدة ، وأن الحركة ، والتغير ، والنمو ، أشياء غير حقيقة ، فهى خيالات لمشاعر سطحية ، متعارضة ثقافهة ؛ وأن من وراء هذه المظاهر وحدة ، متجانسة لا تتبدل ، ولا تنقسم ، ولا تتحلل ولا تتحرك ، وهى وحدة الكائنات ، والحقيقة التى لا حقيقة سواها ، والإله الذى لا إله غيره . لقد كان هرقليلطس يقول إن كل شيء يتغير *Panta rei* أما پارمنيدس فيقول إن الأشياء بأجمعها كل واحد أبداً *Hen ta panta* . وهو فى بعض الأحيان يقول كما يقول أكسانوفان إن هذ الواحد هو الكون ، ويصفه بأنه شبه كرى ومحدود ؛ وكان فى بعض الأحيان حين ينظر إليه نظرة فكرية مجردة يرى أن هذا الكائن هو الفكر ويقول : « إن الفكر والكون شيء واحد^(٤) » . وكأنه يريد بهذا أن يفهمنا أن الأشياء لا وجود لها فى إدراكنا ؛ وأن البداية والنهاية ، والمولد والموت ، والتكوين والتدمير ، لا تصيب إلا الأشكال والصور ، أما الواحد الحق فلا بداية له ولا نهاية ، وليس ثمة صيرورة ، وليس ثمة إلا وجود ، وأن الحركة أيضاً غير حقيقية لأنها تفترض انتقال شيء من المكان الذى هو فيه إلى مكان لا يوجد فيه شيء أى إلى الفراغ ؛ ولكن الفراغ الذى هو غير كائن لا يمكن أن يكون ، إذ ليس ثمة فراغ قط ، لأن الواحد يملأ كل ركن وكل شق فى العالم ، وهو ساكن سكوناً سرمدياً^(*) .

(*) إن هذه الأقوال مجهدة للخيال ، ولكننا نكاد نفعل ما فعله پارمنيدس حين تقل
إن متضدة ما فى حالة سكون مع أنها (كما يقولون) تتكون من « كهارب » (الكترولونات) =

ولم يكن ينتظر بطبيعة الحال أن يستمع الناس إلى هذه الأقوال كلها وهم صابرون ، ويبدو أن السكون البارمينيدي كان الهدف الذى صوبت إليه مئات من الهجمات الميتافيزيقية . وترجع أهمية زينون الإليائى الحصيف تلميذ بارمينيدس إلى محاولته إثبات أن فكرتى التعدد والحركة كانتا من الوجهة النظرية على الأقل مستحيلتين كاستحالة واحد بارمينيدس الثابت القديم ، الحركة - وأراد زينون أن يدرب نفسه على الضلال والمشاكسة ، وأن يسلى شبابه فى الوقت نفسه ، فألف كتاباً فى المتناقضات وصلت إلينا تسع منها ، حسبنا أن نورد منها ثلاثاً : وأولى هذه المتناقضات كما يقول زينون أن الجسم الذى يتحرك إلى نقطة أ لا بد أن يصل إلى ب وهى منتصف طريقه إلى أ ، ولكى يصل إلى ب يجب أن يصل أولاً إلى ج منتصف طريقه إلى ب ، وهكذا إلى ما لا نهاية . وإذا كانت هذه السلسلة التى لا نهاية لها من الحركات تتطلب قدراً لا نهاية له من الزمن ، فإن تحرك أى جسم إلى أية نقطة فى زمن محدد أمر مستحيل . والثانية وهى صورة أخرى من الأولى أن أخيل السريع العدو لا يستطيع أن يدرك السلحفاة البطيئة . وذلك لأنه كلما وصل إلى النقطة التى كانت فيها السلحفاة ، تكون السلحفاة فى هذه اللحظة نفسها قد انتقلت من هذه النقطة . والثالثة أن السهم الطائر فى الهواء هو فى الحقيقة ساكن غير متحرك ، لأن فى كل لحظة من طيرانه لا يكون إلا فى نقطة واحدة فى الفضاء ، أى أنه يكون ساكناً ، وحركته منطلقاً وميتافيزيقياً غير حقيقية مهما بدا للحواس أنها واقعة فعلاً (٥٠) (٥) .

= دائمة الحركة . وقد كان بارمينيدس يرى العالم كما نرى نحن المنضدة ، ولو قدر للتدبر أن يرى العالم لرآه كما نراها نحن .

(*) وقد انتقل البحث فى هذه المتناقضات من أفلاطون (٦) إلى برتراند رسل (٧) ، وقد يستمر مادام الناس يعتقدون خطأً أن الأسماء هى المسيمات . والذى تجعل هذه الألفاظ عديدة القيمة هى التراض واصفها أن « غير مدود » شئ وليس كلمة تدل على عجز العقل عن أن يدرك النهاية المطلقة ، وأن الزمان والمكان والحركة كلها أشياء غير متصلة أى أنها تتكون من قطع أو أجزاء منفصلة بعضها عن بعض .

وجاء زينون إلى أثينة حوالي عام ٤٥٠ ق . م . ولعله جاء إليها مع پارمنيدس وأثار ثائرة المدينة السريعة التأثر بقدرته على تحويل أى نوع من أنواع النظريات الفلسفية إلى سخافات غير معقولة . وقد وصف تيمون الفيلسوف Timon of Phlius « لسان زينون ذى الحدين الذى يستطيع أن يبرهن على أن كل قوله يقول الإنسان غير حقيقى » (٨) .

ومن هذه النعرة قبل السقراطية (ونحن نسميها نعرة لأن جهلنا بالماضى يضطرنا إلى تسمية هذه المعانى بتلك الأسماء) كانت بداية علم المنطق كما كان پارمنيدس بالنسبة لأوروبا هو واضح علم ما وراء الطبيعة . ولقد حاكى سقراط طريقة زينون الجدلية (٩) محاكاة شديدة وإن كان قد ندد بها وشنع عليها ، وبلغ من تحمسه لهذه الطريقة أن اضطر قومه إلى قتله لكي يريحوا عقولهم من جدله . ولقد كان أثر زينون فى السوفسطائيين المتشككين حاسماً قوياً ، وكان لتشككه آخر الأمر الغلبة فى بيرون Puroho وقرنيادس Carneades . وقد أصبح فى شيخوخته رجلاً « ذا حكمة عظيمة وعلم غزير (١٠) » فأخذ يشكو من أن الفلاسفة قد حملوا مزاحه العقل فى أيام شبابه محمل الجد . وكان انقلابه الأخير سبب القضاء عليه . ذلك أنه اشترك فى حركة تهدف إلى خلع البلاغية نيارقيس Nearches فى إيليا ولكنه أخفق فى محاولته ، وقبض عليه ، وعذب ، وقتل (١١) ، وصبر الفيلسوف على عذابه صبر الأبطال ، وكأنما أراد بذلك أن ينضم اسمه بعد قليل من الزمن إلى أسماء أصحاب الفلسفة الرواقية .

الفصل الثاني

الماديون

لقد كان إنكار پارمنيدس للحركة والتغير بمثابة ثورة على ميتافيزيقية هرقليطس المائعة المزعزعة ، وكذلك كانت عقيدة وحدة الكون ثورة عنيفة على عقائد الفيثاغورين المتأخرين . ذلك أن هؤلاء الفلاسفة قد حوآوا نظرية الأعداد التي قال بها كبيرهم إلى المبدأ القائل بأن الأشياء جميعها تتكون من أعداد أى من وحدات غير قابلة للانقسام^(١٢) . ولما أن أضاف فيالولوس الطيبي إلى هذا المبدأ أن « الأشياء بجميعها تحدث بالضرورة والتوافق »^(١٣) كان كل شيء قد أعد لظهور المذهب اللري أو مذهب الجوهر الفرد في الفلسفة اليونانية .

ففي عام ٤٣٥ جاء لوقيبوس الملطي إلى إيليا وتلقى العلم على زينون ، ولعله قد سمع هناك باللرية العددية التي يقول بها الفيثاغوريون ، ذلك أن زينون كان قد وجه بعض متناقضاته الدقيقة إلى عقيدة التعدد^(١٤) . واستقر لوقيبوس آخر الأمر في أبديرا وهي مستعمرة أيونية مزدهرة في تراقية . وقد ضاعت تعاليمه المباشرة فلم يبق منها إلا هتامة صغيرة هي قوله : « لا شيء يحدث من غير علة ، بل إن الأشياء كلها تحدث لعلة ، وبالضرورة »^(١٥) .

ولعل لوقيبوس قد أوجد فكرة الفراغ ليرد بها على أقوال زينون وپارمنيدس ، وكان يأمل بهذه الطريقة أن يجعل الحركة مستطاعة من الوجهة النظرية كما هي واقعية من الناحية الحسية . ويقول : إن العالم يحتوي على جواهر فردية وعلى فراغ ولا شيء غيرهما ، وإن هذه الجواهر التي تتساقط في دوامة كبرى تسقط بالضرورة إلى الصور الأولية للأشياء جميعها ، وينضم كل شيء

إلى مثيله ؛ وهذه الطريقة وجدت الكواكب والنجوم (١٦) ؛ والأشياء جميعها بما فيها النفس البشرية مكونة من جواهر فردية (ذرات) .

وكان ديمقريطس تلميذ لوقيبوس أو زميله في تحويل فلسفة الجواهر الفرد إلى نظرية مادية كاملة . وكان والده من ذوى المكائنة الملحوظة والثراء العظيم في أثينة (١٧) ؛ ويقال إنه ورث منه مائة وزنة من المال (٨٠٠٠٠٠ ريال أمريكى) أنفق معظمها فى الأسفار (١٨) . وتقول بعض الروايات التى لانجد ما يؤيدها إنه سافر إلى مصر وبلاد الحبشة وبابل وفارس والهند (١٩) ، ويقول هو نفسه فى ذلك : « لقد طفت بين معاصرى فى أكبر جزء من الأرض للبحث عن أبعد الأشياء ، ورأيت أكثر الجواهر والأقطار ، وسمعت إلى أكبر عدد من المفكرين (٢٠) » . وأقام فى بوثوية الطبيعية زمنا يكفى لتشعبه بنظرية فيلولوس فى الذرية العددية (٢٢) ؛ ولما فرغت منه نقوده بلأى إلى الفلسفة ، واخشوشن فى معيشته ، ووجه جهوده كلها إلى الدرس والتفكير ، وقال : « إن الكشف عن برهان واحد (فى الهندسة) خير لى من الحصول على عرش فارس (٢٣) » . وكان على شىء من التواضع لأنه كان يبتعد عن الجدل والنقاش ؛ ولم يوجد مدرسة خاصة ، وأقام فى أثينة من غير أن يتعرف إلى أحد من فلاسفتها (٢٤) . وقد ذكر ديوجين ليرتيوس Diogenese Laertius (ديوجانس) ثبنا طويلا من كتبه فى علوم الرياضة والطبيعة والفلك والملاحة ، والجغرافية ، والتشريع ، ووظائف الأعضاء ، وعلم النفس ، والعلاج النفاثى ، والطب ، والفلسفة ، والموسيقى (٢٥) . ويسميه ثراسيلس Thrasyllus صاحب التارين الخمسة فى الفلسفة ، ويطلق عليه بعض معاصريه اسم الحكمة (Sophia) نفسها (٢٦) . وقد بلغت معارفه من السعة والتعدد ما بلغته معارف أرسطاطاليس

(*) ومن أقواله : « إن الأرض كلها وطن لرجل الحكيم الصالح » (٢٦) .

نفسه ، ونال أسلوبه من الإعجاب ما ناله أفلاطون (٢٧) ، ووصفه فرانسس بيكن Francis Bacon في ساعة تخلى فيها عن عناده بأنه أعظم الفلاسفة الأقدمين على بكرة أبيهم (٢٨) .

وهو يبدأ كما يبدأ پارمنيدس يبحث تحليلي في الحواس فيقول إنه لا بأس علينا من الوثوق بها في الأغراض العملية ؛ ولكننا لا نكاد نحلل ما تمدنا به من المعلومات حتى نجد أنفسنا ننزع من العالم الخارجي طبقة بعد طبقة مما تضيفه عليه الحواس من اللون ، والحرارة ، والطعم ، والنكهة ، والحلاوة ، والمرارة ، والصوت . وهذه «الصفات الثانوية» كائنة فينا نحن أو في عملية الإدراك الكلية ، لا في الشيء الموضوعي ، وفي العالم الخالي من الآذان لا تُحدث الغابة الساقطة صوتاً ، ولا يكون لماء البحر مهما غضب هدير ، والعرف (Nomos) هو الذي يجعل الحلو حلواً والمر مرأ ، والحر حاراً ، والبارد بارداً ؛ أما الحقيقة فهي أنه لا وجود إلا للجواهر الفردية (النرات) والفراغ (٢٩) . ومن ثم فإن الحواس لا تمدنا إلا بالمعلومات أو الآراء العامة ؛ أما المعرفة الحقة فلا سبيل إليها إلا البحث والتفكير . والواقع أننا لا نعرف شيئاً ؛ فالحق مدفون على بعد منا عظيم . . . ولسنا نعرف شيئاً معرفة أكيدة ، بل كل ما نعرفه هو ما يحدث في جسمنا من تغيرات بتأثير القوى التي تصطدم به (٣٠) . وكل الأحاسيس ناشئة من الجواهر الفردية التي يقذف بها الجسم الخارجي فتقع على أعضاء الحواس (٣١) ، وليست الحواس كلها إلا أشكالاً من اللمس (٣٢) .

وتختلف الجواهر الفردية التي يتكون منها العالم في شكلها وحجمها ووزنها ؛ وكلها تنزع إلى السقوط إلى أسفل ، وتنتج من هذا حركة دائرية تتحد فيها الجواهر المتماثلة بعضها ببعض فتنتج من اتحادها الكواكب والنجوم . وهذه الجواهر لا يقودها فكر (Nous) أو ذكاء ، ولا يرتبها «حب» أو «كراهية» كما يقول أنبادوقليس ، بل إن الضرورة — أى الأثر الطبيعي للعلل الكامنة فيها هي التي تسيطر عليها جميعاً (٣٣) . وليس ثمة مصادفة ، بل المصادفة

خرافة اخترعت لتبرير جهلنا^(٣٤) ، وكية المادة تبقى على حالها ، لا يضاف إليها شيء جديد ، ولا يفتى منها شيء^(٣٥) ، وكل الذي يحدث هو تغير في اتحاد الجواهر الفردية . لكن صور الأشياء مع هذا لا حصر لها ، وحتى العوالم نفسها يوجد منها في أكبر الظن عدد « غير محدود » وهي تنشأ وتزول في موكب لا نهاية له^(٣٦) . وقد نشأت الكائنات العضوية في مبدأ أمرها من التراب المبلبل^(٣٧) ، وكل شيء في الإنسان مصنوع من جواهر فردية ، والروح نفسها مكونة من جواهر جد صغيرة ملساء مستديرة كجواهر النار ، والعقل ، والنفس ، والحرارة الحيوية ، والمبدأ الحيوى ، كلها شيء واحد ؛ لا يختص بها الإنسان أو الحيوان بل هي منتشرة في العالم كله موزعة عليه ، والجواهر الفردية العقلية الكائنة في الإنسان وغيره من الحيوانات التي بها تفكر في جميع أجزاء الجسم^(٣٨) (*) .

بيد أن هذه الجواهر الفردية الدقيقة التي تتكون منها النفس هي أكثر أجزاء الجسم نبلا وأعظمها إثارة للدهشة . والرجل العاقل ينمى فكره ؛ ويمرر نفسه من الانفعالات ، والخرافات ، والخاوف ، ويبحث بالتأمل والإدراك عن السعادة العقلية التي في مبتناول الحياة البشرية . والسعادة لا تنشأ من الطيبات الخارجية ، بل ينبغى للإنسان أن يتعود على أن يجد في داخل نفسه مصادر متعته وسعادته^(٣٩) . والثقافة خير من الغنى . . . ولا تستطيع قوة أو ثروة أن تترجح اتساع دائرة العلم^(٤٠) . والسعادة تأتي متقطعة ، و « اللذائد المادية لا تشبع صاحبها إلا زمناً قصيراً » ؛ لكن الإنسان ينال سروراً أدام إذا حصل على سلام النفس وصفائها (أتاركسيا ataraxia) وعلى البهجة (euthumia) . والاعتدال (metriotes) قدر من النظام والتناسب في الحياة (biou symmetria) . وفي وسعنا أن نتعلم الشيء الكثير من الحيوانات -

(*) يمزو لكرتهوس Lucretius إل « دمقريطس العظيم » القول بوجود نوع من الموازاة النفسية الجسمية . فقد « قال (دمقريطس) إن جواهر الجسم وجواهر العقل توضع أرباباً كل منها بجوار الآخر ؛ وهذا تربط هيكل الجسم بعنقه ببعض » .

و الغزل من العنكبوت ، والبناء من العصفور ، والغناء من العنديلين
والتَّمَّ (٤٨) ، و قوة الجسم لا تحون من أسباب النيل. ١١ في دواب النقل
أما قوة الخلق فهي سبب النيل في الإنسان (٤٩) . وهكذا يفعل دمقريطس
ما فعله من بعده الضالون في إنجلترا في عصر الملكة فكتوريا فقيم على
ميتافيزيقاه الشائنة صرحاً من المبادئ الخلقية الخلابة الظاهر . و الأعمال
الحسية يجب أن تصدر عن عقيدة . لا عن قسر ، ويجب أن يفعلها الإنسان
لرغبة فيها لا أملاً فيما يناله عليها من جزاء ومن واجب الإنسان
أن يشعر بالعار أمام نفسه إذا فعل الشر أكثر مما يشعر به أمام العالم كله (٤٧) .

وقد أوضح حكمته ، ولعله برر أيضاً نصابه ، بأن عاش حتى بلغ
من السن مائة عام وتسعة أعوام ، أو تسعين عاماً كما يقول بعضهم (٤٨) .
ويروى ديوجين ليرتيوس أنه لما قرأ دمقريطس على الجماهير أهم مؤلفاته
كلها وصور كتاب العالم الأكبر *Megas diakosmos* أهدت إليه مدينة
أبدوا مائة وزنة (٦٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) ، ولكن لعل أبلدا كانت
وقتل قد خفضت قيمة نقدها . ولما سأله بعضهم عن سر عمره الطويل أجاب
بأنه كان يأكل عسل النحل في كل يوم وأنه كان يستحم بالزيت (٤٩)
ولما رأى آخر الأمر أنه قد عاش من العمر ما يشتهي أخذ يقلل من طعامه
يوماً عن يوم يريد بذلك أن يميت نفسه جوعاً شيئاً فشيئاً (٥٠) ؛ ويقول
ديوجين « إنه بلغ أزدل العمر (٥١) وإنه خيل إلى الناس أنه يحضر ،
وحزنت أخته لأنه سيموت في أثناء عيد تزموفوريا *Thesmophori*
فيحول موته دون قيامها بما يجب عليها نحو الإلهة ، ها كان منه إلا أن
أمرها بأن تخفف من لوعتها ، وأن تأتيه كل يوم بيضعة أرغفة من
الخبز الساخن (أو بقليل من عسل النحل (٥٢)) . واتخذ يضع هذا

الطعام فوق منخريه ، واستطاع بذلك أن يطيل حياته خلال أيام العيد . فلما أن انقضت ثلاثة أيام العيد لفظ آخر أنفاسه دون أي ألم ، كما يؤكد لنا هباركس وذلك بعد أن عاش مائة عام وتسعة أعوام ٥

واحتفلت مدينته بجزائه احتفالاً عاماً ، وأثنى عليه تيمون الأثيني Timon of Athens . ولم ينشئ ديمقريطس مدرسة خاصة ، ولكنه صاغ أهم فرض من الفروض العلمية وأوجد للفلسفة نظاماً بقي بعد أن عفا الزمان على غيره من النظم التي ظلت تندد به ، ولا يزال يظهر في العالم جيلاً بعد جيل .

الفصل الثالث

أنبادوقليس

المثالية تضايق الحواس ، والمادية تكدر النفس ، لأن أولاهما تفسر كل شيء ما عدا العالم ، والأخرى تفسر كل شيء ما عدا الحياة ؛ وإذا أريد مزج هذين النصفين من أنصاف الحقائق فلا بد من العثور على مبدأ محرك دافع يتوسط بين التركيب والتماء ، وبين الأشياء والأفكار ؛ وقد حاول أنكساغوراس أن يبحث عن هذا المبدأ في العقل الكوني ، وحاول أنبادوقليس أن يبحث عنه في القوى الكامنة التي تنزع إلى الثورة والانتقال .

وكان مولد هذا الأكرغاسي الشبيه بليونارد Leonarda في عام مرثون، من أسرة غنية كانت مولعة بسباق الخيل ولعاً لم يكن يرجى معه أن ينبغ أحد أبنائها في الفلسفة . وقد درس بعض الوقت مع الفيثاغوريين ، فلما نضج عقله أخذ يفشى بعض عقائدهم السرية فطرد من زمريتهم^(٥٤) . وأولع أشد الولع بعقيدة تناسخ الأرواح ، وأعلن بخيال الشعراء وعواطفهم أنه كان « في سالف الأيام شاباً ، وفتاة ، وغصناً مزهراً ، وطائرأ ، وسمكة تسبح صامتة في البحر العميق »^(٥٥) . وذم أكل الطعام الحيواني ووصفه بأنه لا يخرج عن أن يكون صورة من أكل اللحوم البشرية ، أليست هذه الحيوانات تجسيداُ جديداً لبعض الآدميين^(٥٦) ؟ وكان يعتقد أن الناس جميعاً كانوا من قبل آلهة ، ولكنهم خسروا مكانهم في السماء لارتكابهم شيئاً من الدنس أو العنف ، ويقول إنه واثق بأنه يشعر في قرارة نفسه بما يوحى إليه بالوهيته قبل مولده . « وأى مجد عظيم وأية سعادة ليس فوقها سعادة قد تدهورتُ منهما الآن ، وأصبحت أطوف الأرض مع

الآدميين! (٥٧)». - وإذا كان وانقأ من هذا الأصل الإلهي فقد احتذى
حدايين من الذهب ، وليس ثوبين أرجوانيين ، ووضع على رأسه إكليلا
من الفار ؛ وقال لأبناء وطنه متواضعا إنه محبوب أبلو ، ولم يعترف لغير
أصدقائه بأنه إله . وادعى أن لها قوى فوق قوى البشر ، ومارس بعض
لقوس السحر . وحاول بطريق العزائم والرق أن يتنزع من العالم الآخر
أسرار مصير الإنسانية . وعرض على الناس أن يشفى مرضاهم بسحر
الألفاظ ، وشفى كثيرين منهم حتى كاد الناس يصدقون دعواه . أما
الحق فإنه كان طبيياً نطاسيا ذا آراء كثيرة في علم الطب ، وتمكناً من
سيكولوجية الفن ؛ وكان فوق ذلك خطيباً مصقماً ، « اخترع » كما
يقول أرسطاطاليس ، أصول البلاغة وعلمها غورغياس ، فعرضها هذا
للبيع في أثينة ؛ وكان مهندساً أنجى سليمان من الوباء بتجفيف المستنقعات
وتحويل مجارى الأنهار (٥٩) . وكان سياسياً شجاعاً تزعم ، وهو أرسطراطي
الأصل ، ثورة على الأرستقراطية الضيقة ، وأبى أن يكون حاكماً بأمره ؛
وأقام حكماً ديمقراطياً معتدلاً . وكان شاعراً كتب في الطبيعة وفي التطهير شعراً
بديعاً اضطرب أرسطاطاليس وشيخرون إلى أن يضعاه في مصاف الشعراء
المجيدين ، وأظهر لكريشوس إعجابه به بمحاكاته . وقال فيه ديوجين
ليرتيوس : « وإذا ذهب إلى الألعاب الأولمبية استلقت جميع الأنظار ، حتى لم
يكن يذكر إنسان آخر بمثل ما يذكر به هو (٦١) » ، ولعله كان كما يقول إلما :

ولم يبق لنا من أشعاره إلا ٤٧٠ بيتاً لا نجد فيها إلا إشارات منقطعة
لفلسفته ، فترى منها أنه كان يختار مبادئه من فلسفات مختلفة ، ويرى في كل
طريقة من طرائقها شيئاً من الحكمة ، ولا يوافق پارمنيدس على رفض جميع
ما يجيء إلينا من المعلومات عن طريق الحواس ، بل يثنى على كل حاسة
ويرى أنها « طريقاً موصلًا للإدراك (٦٣) » . وعنده أن الحس ينشأ من انبعاث
جزيئات تنتقل من الجسم الخارجى ، وتقع على « مسام (poroi) الحواس ،

ومن أجل هذا يحتاج الضوء إلى بعض الوقت لكي يصل إلينا من الشمس (٦٤) ، وينشأ الليل من اعتراض الأرض لأشعة الشمس (٦٥) ، والأشياء كلها تتكون من عناصر (*) أربعة : الهواء ، والنار ، والماء ، والتراب ، وتعمل في هذه العناصر قوتان رئيسيتان هما الجذب والطرْد ، أو قوتا الحب والبغض .

وينتج من اجتماع العناصر وتفرقها بفعل هاتين القوتين اجتماعاً وتفرقاً لا آخر لها عالم الأشياء والتاريخ . فإذا كانت الغلبة للحب أى النزعة إلى الاتحاد تحولت المادة إلى نبات ، واتخذت الكائنات العضوية أشكالاً مطردة الرقى . وكما أن تناسخ الأرواح يؤلف من الأنفس كلها سيرة واحدة ، كذلك لا يوجد في الطبيعة فرق واضح بين جنس وجنس ، أو بين نوع ونوع . ألا ترى مثلاً أن « الشَّعر ، وأوراق الشجر ، وريش الطيور السميكة والحراشف التي تتكون على الأعضاء الصلبة ، كلها من نوع واحد (٦٨) ؟ » . والطبيعة تنتج كل نوع من أنواع الأعضاء والأشكال ، والحب يؤلف بينها ، فيجعل منها تارة هولاء غريبة تهلك لعدم قدرتها على التكيف لتلائم البيئة المحيطة بها ، وتارة أخرى يجعل منها كائنات عضوية قادرة على التكاثور وموامة ظروف الحياة (٦٩) والأشكال العليا كلها تنشأ من الأشياء السفلى (٧٠) ، وقد كانت الذكورة والأنوثة في بادئ الأمر مجتمعين في جسم واحد ، ثم انفصلنا وظلت كلتاها تنوق إلى الاتحاد مع الأخرى (**)(٧١) . ويوجد في مقابل عملية التطور هذه عملية الانحلال ، يمزق فيها الكره ، أو قوة التقسيم ، البنيان المعقد الذي أقامه الحب ، فتعود الكائنات العضوية والنباتات عوداً بطيئاً إلى صووة تزداد بدائية يوماً بعد يوم ، ويظل هذا يحدث حتى تختلط الأشياء جميعها مرة أخرى في كتلة فطيرة غير محددة الشكل (٧٢)

(*) أو أركان كما كان العرب يسمونها . (المترجم)
(**) لعل أفلاطون قد استمد من هذا خطبة أرسطوفان في « معرض آرائه » .

وهاتان العمليتان المتبادلتان عملية التطور وعملية الانحلال مستمرتان إلى أبد الدهر في كل جزء على حدة وفي الكل مجتمعا ؛ وتتنازع القوتان قوة الائتلاف وقوة التفرقة ، قوة الحب وقوة الكره ، قوة الخير وقوة الشر ، وتتوازنان في نظام عالمي شامل هو نظام الحياة والموت . ألا ما أقدم فلسفة هربرت اسپنسر ! (٧٣) .

ومكان الله في هذه العملية غير واضح ، وذلك لأنه من الصعب أن نفرق بين الحقيقة والحجاز أو بين الفلسفة والشعر في أقوال أبادوقليس ؛ فهو يُبعض الأحيان يوحد بين الإله وبين الكون نفسه ، وفي بعضها الآخر يوحد بينه وبين حياة كل حي أو عقل كل عاقل ؛ ولكنه يدرك أننا لن نستطيع قط أن نكون فكرة صحيحة عن القوة الخالقة الأساسية الأصلية . انظر مثلا إلى قوله : « لن نستطيع أن نقرب الله منا قريبا يمكننا من أن ندركه بأعيننا ، ونمسكه بأيدينا . . . ذلك أنه ليس له رأس بشري ملتصق بأعضاء جسمه ، وليس له ذراعان متفرعتان تتدليان من كتفيه ، وليس له قدمان ولا ركبتيان ولا أعضاء مكسوة بالشعر . إنه كله عقل لا غير ، عقل مقدس لا ينطبق عليه وصف ، يومض في طيات العالم كله وميض الفكر الخاطف » (٧٤) . ويختم أبادوقليس حديثه هذا بنصيحة الشيخوخة التي أنطقته بها الحكمة والكلاية : « ما أضعف وما أضيقت القوى المودعة في أعضاء الإنسان ؛ وما أكثر المصائب التي تثلم حد التفكير ، وما أقصر الحياة التي يكدح فيها الناس والتي تنتهي بالموت . فإذا حل بهم زالوا من الوجود وتلاشوا كما يتلاشى الدخان و صاروا هواء ، يعرفون أن ما يحملون به ليس إلا الصغائر التي عثر عليها كل واحد منهم أثناء تجواله في هذا العالم . ومع هذا تراهم جميعا يفخرون بأنهم عرفوا كل شيء . ألا ما أشد حقهم وأكثر غرورهم ! ذلك أن هذا الكلي الذي يفخرون بمعرفته لم تره عين ولم تسمعه أذن ، ولا يمكن أن يدركه عقل إنسان » (٧٥) .

واستحال في آخر سن من حياته واعظا دينيا أكثر مما كان من قبل ،

منهمكاً في نظرية التجسيد ، وأخطأ بتوسل إلى بنى جنسه أن يتطهروا من الخطيئة التي طردوا بسببها من السموات ، ويدعو الجنس البشرى ، بما أوقف من حكمة بوذا وفيثاغورس ، وشوڤنهور ، أن يمتنع عن الزواج ، والتناسل^(٧٦) . ولما حاصر الأثينيون سرقوسة في عام ٤١٥ ، بذل أنبادوقليس كل ما في وسعه لتأييد المقاومين وأغضب بذلك أكرجاس ، التي كانت تحقد على سرقوسة بكل ما في قلوب الأقارب من حقد دفين ، ونفى من بلده ، فذهب إلى أرض اليونان القارية حيث وافاه الأجل في ميغارا كما تقول بعض الروايات^(٧٨) . ولكن ديوجين ليرتيوس يروى عن هيبوتس Hippobotus أن أنبادوقليس بعد أن أعاد إلى الحياة الكاملة امرأة اعتقد الناس أنها قضت نحبها غادر الرليمة التي أقيمت احتفاء بشفائها ، واخفى فلم ير بعد ذلك أبداً . وتقول بعض الأساطير إنه ألقى بنفسه في فوهة بركان إتنا الناثر لكي يموت من غير أن يخلف وراءه أثراً ، فيؤيد بذلك دعواه أنه إله . ولكن النار العنصرية غدرت به ، فقلدت بنفخه النحاسيين ، وتركتها على حافة كأس البركان ، كأنهما رمزان ثقيلان للفناء^(٨٠) .

الفصل الرابع

السوفسطائيون

إن الذين يقولون إن بلاد اليونان هي أئينة يكذبهم أن أحداً من كبار المفكرين اليونان قبل سقراط لم يكن من أهل تلك المدينة ، وأنه لم يعقبه مفكر من أهلها حتى جاء أفلاطون . وإن المصير الذي لاقاه أنكساغوراس وسقراط ليبدل على أن الجمود الديني كان في أئينة أقوى منه في المستعمرات ، وذلك لأن انفصال هذه المستعمرات من الناحية الجغرافية قد حطم بعض قيود التقاليد القديمة . ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا إن أئينة كانت تبقى مدينة غير متساحة إلى حد السخف والغباء ولا مجال فيها للتفكير الحر لو لم تقم فيها طبقة دولية من التجار ، ولم يفد إليها جماعة السوفسطائيين .

وقد كانت المناقشات التي تدور في الجمعية ، والمحادثات التي تجرى أمام الهيلىا ، والحاجة المتزايدة إلى القدرة على التفكير تفكيراً منطقي الظاهر ، وإلى التعبير عن الأفكار تعبيراً واضحاً مقنعاً ، لقد كانت هذه كلها مضافة إلى ثراء المجتمع الإمبراطوري وتشوفه عاملاً في إشعار الناس بالحاجة إلى شيء لم يكن معروفاً في أئينة قبل بركليز ، ونعني بذلك الدراسة العليا المنظمة للآداب ، والخطابة ، والعلوم ، والفلسفة ، وأساليب الحكم ، والسياسة ، ولم تقابل هذه الحاجة في بادئ الأمر بتنظيم الجامعات ، بل قوبلت بوجود طائفة العلماء الجوالين يستأجرون قاعات المحاضرات ، ويدرسون فيها ما يضعونه للتعليم من مناهج ، ثم ينتقلون إلى مدن أخرى ليعيدوا فيها هذه الدراسة . وكان بعض هؤلاء المعلمين ، ومنهم پروتاغوراس Protagoras ، يطلقون على أنفسهم لقب سوفسطاى أى معلمو الحكمة (٨١) ، وكان الناس يفهمون من هذا اللفظ ما نفهمه نحن من لفظ «أستاذ جامعى» ، ولم يكن

له معنى محط بالكرامة حتى قام النزاع بين الدين والفلسفة فأدى إلى هجوم المحافظين على السوفسطائيين ؛ وأثارت نزعة بعضهم التجارية أفلاطون إلى تسوية سمعتهم بأن عزا إليهم تهمة « السفسطة » بغية المكسب ، وهى الوصف الذى ظل لاصقاً بهم إلى يومنا هذا . ولعل الجمهور كان يشعر نحو هؤلاء بشيء من الكره الخفى من بدء ظهورهم ، لأن ما كانوا يتقاضونه من باهظ الأجر نظير تدريس المنطق والبلاغة لم يكن يطيقه إلا الأغنياء الذين أفادوا من علمهم هذا فى دور القضاء (٨٢) . ولسنا ننكر أن المشهورين من السوفسطائيين كانوا يتقاضون ممن يعلمونهم أكثر ما يرضى هؤلاء أن يؤدوه إليهم من الأجور ، وذلك هو قانون الأثمان فى كل مكان ... فكان پروتاغوراس ، وغورغياس ، كما يقول الرواة ، يطلبان عشرة آلاف درخمة (١٠,٠٠٠ ريال أمريكى) أجرا لتعليم تلميذ واحد . غير أن من كانوا أقل من هذين شأناً كانوا يقنعون بأجور معتدلة ؛ فكان پرودكس Prodicus مثلاً - وهو الذى ذاع صيته فى جميع أنحاء بلاد اليونان - يطلب ما بين درخمة وخمسين أجراً للاشتراك فى مناهجه (٨٣) .

وقد ولد پروتاغوراس أشهر السوفسطائيين جميعهم فى أيدرا قبل مولد دمقريطس بجبل من الزمان . وكان فى أثناء حياته أشهر الرجلين وأعظمهما نفوذاً ؛ وفى وسعنا أن نستدل على ما كان له من شهرة واسعة بما أحدثته زيارته لأثينا من حماسة بالغة (٨٤) واهتياج فيها كبير ؛ وحتى أفلاطون نفسه - وهو الذى لم يقل كلمة طيبة فى السوفسطائيين عن قصد - كان يحمله ويصفه بأنه على خلق عظيم . وفى الحوار الأفلاطونى الذى سمي باسمه نرى پروتاغوراس أحسن مظهراً من سقراط الشاب الكثير الجدل ؛ فسقراط فى هذا الحوار

(٥) أكبر الظن أن هذه الزيارات كانت فى الأعوام الآتية : ٤٥١ - ٤٤٥ ، ٤٣٢ ،

هو الذى يتحدث كما يتحدث السوفسطائيون . وپروتاغوراس هو الذى يسلك مسلك الرجل المهذب والفيلسوف ، فلا يغضب أو يثور ، ولا يحقد على أحد لما يبيده من دلائل الفطنة والذكاء ، ولا يُحَمِّل حجج مناظريه من الجدل أكثر مما تحتمله ، ولا يهتم قط بأن يتكلم . ويعترف بأنه أخذ على نفسه أن يعلم تلاميذه التبصر والحد في الشئون الخاصة والعامة ، وحسن تنظيم المنزل والأسرة ، وفنون البلاغة أو الكلام المقنع والقدرة على فهم شئون الدولة وحسن إدارتها^(٨٦) . . وهو يبرر ما يأخذه من أجور عالية بقوله إن من عادته ، إذا عارض تلميذ فيما يطلبه من أجر ، أن يقبل منه أى أجر يراه التلميذ عادلا على شريطة أن يؤكد ذلك في خشوع أمام مزار مقدس^(٨٧) - وتلك لعمري خطة حمقاء من معلم يشك في وجود الآلهة . ويتهمه ديوجين ليرتس بأنه « أول من سلح المجادلين بسلاح المغالطات المنطقية » وهى تهمة يسر منها سقراط بلا ريب ، ولكن ديوجين يضيف إلى ذلك قوله : « كان بالإضافة إلى هذا أول من اخترع ذلك النوع من الجدل الذى يسمونه الجدل السقراطى^(٨٨) » - وهى تسمية قد لا يرتاح لها سقراط .

وكان من أفضاله الكثيرة أنه وضع أساس النحو وفقه اللغة الأوربيين ، ويقول عنه أفلاطون إنه بحث في الطريقة الصحيحة لاستعمال الألفاظ ، وإنه كان أول من قسم الأسماء إلى مذكرة ومؤنثة وغير مذكرة ولا مؤنثة ، وأول من ذكر أزمان الأفعال وحالاتها (إخبارية أو شرطية الخ^(٩٠)) ؛ ولكن أهم ما يعنيننا من أمره أن به ، لا بسقراط ، تبدأ النظرة الذاتية في الفلسفة . فقد كان على عكس الأيونيين يعنى بالأفكار أكثر ما يعنى بالأشياء ونعنى بالأفكار عملية الإحساس ، والإدراك ، والفهم والتعبير بأكملها ؛ فبينما كان بارمنيدس يرى أن الإحساس لا يهدى إلى الحقيقة ، كان پروتاغوراس يرى كما يرى لُكْ Locke أنه السبيل الوحيدة إلى المعرفة ، وبأبى أن يعترف بوجود أية حقيقة تعلق على العقل ولا تدرکها الحواس . ومن

أقوال پروتاغوراس أن الحقيقة المطلقة لا وجود لها ، وأن كل ما يوجد هو الحقائق التي يعتقها بعض الناس في ظروف خاصة ، وقد تكون الأقوال المتناقضة حقائق متساوية القيمة في اعتقاد أشخاص مختلفين أو في أزمنة مختلفة^(٩١) . والحقيقة كلها والخير والجمال ، أمور نسبية وشخصية ؛ « والإنسان هو المقياس الذي تقاس به جميع الأشياء فهو الذي يقرر أن الأشياء الكائنة كائنة ، وأن الأشياء غير الكائنة غير كائنة^(٩٢) » . ولقد نجيل إلى المؤرخ أن العالم كله قد بدأ يرتجف ويتزعزع كيانه حين أعلن پروتاغوراس هذا المبدأ البسيط من مبادئ الإنسانية والنسبية ، وأن الحقائق المقررة والمبادئ المقدسة جميعها أخذت تتصدع وتهار ؛ وأن الفردية قد وجدت صوتاً ينادى بها وفلسفة تؤيدها ، وأن الأسس فوق الطبيعية للنظام الاجتماعي لم تعرضت كلها لخطر الزوال .

ولولا أن پروتاغوراس قد طبق في وقت من الأوقات هذا التشكك البعيد الأثر ، والذي يتضمنه هذا القول الذائع الصيت ، على شئون الدين لبقى قولاً نظرياً مأمون العاقبة . ذلك أن پروتاغوراس قرأه على جماعة من كبار المفكرين في بيت يورپديز الملحد الحر التفكير البغيض إلى الشعب . وقد أثارت أول جملة في هذه الرسالة نائرة الناس في أثينة وكانت الحملة الأولى فيها هي : « أما من حيث الآلهة فلست أدري أمى موجودة أم غير موجودة كما لا أعلم لها شياً . وثمة أشياء كثيرة تقف في سبيل هذه المعرفة : للموضوع غامض ، وحياتنا الفانية قصيرة الأجل^(٩٣) » . وارتاعت الجمعية الأثينية من هذه الكلمة الافتتاحية التي تنلر بشر مستطير فقررت نفى پروتاغوراس ، وأمر الأثينيون على بكرة أبيهم أن يسلموا كل ما عساه أن يكون لديهم من كتاباته ، وأحرقت كتبه في السوق العامة . وفر پروتاغوراس إلى صقلية ولكنه ؛ على ما ترويه القصة ؛ غرق في الطريق^(٩٤) .

وواصل غورغياس الليونتينى، Gorgias of Leontini هذه الثورة التشككية ، ولكنه أوتى من الحكمة ما جعله يقض معظم حياته في خارج أثينة . وكانت سيرته أنموذجاً لسير الرجال الذين يجمعون بين الفلسفة والسياسة في بلاد اليونان . وقد ولد في عام ٤٨٣ ، ودرس الفلسفة والبلاغة مع أنبادوقليس ، وبلغ من شهرته في الخطابة وفي تدريسها أن أرسلته ليونينى في عام ٤٢٧ سفيراً لها في أثينة . واستحوذ في الألعاب الأولمبية التي أقيمت في عام ٤٠٨ على قلوب حشد كبير من الناس بخطاب له طلب فيه إلى اليونان المتحاربين أن يعقدوا الصلح فيما بينهم لكي يواجهوا وهم متحلون واثقون من الفوز قوة بلاد الفرس الآخذة في الانتعاش ، وأخذ ينتقل من مدينة إلى مدينة ويشرح أينما حل آراءه بأسلوب خطابي طلي ، والأفاظ ممتعة وعبارات منسقة في معناها ومبناها ، متزنة اتراناً دقيقاً بين الشعر والنثر ، لم يجد معها أية صعوبة في جذب الطلاب إليه يعرضون عليه مائة مينا نظير منهجه الدراسي . وقد حاول في كتابه في الطبيعة أن يثبت ثلاث قضايا مدهشة مروعة هي أنه : (١) لا وجود لشيء ما . (٢) ولو أن شيئاً وجد لكانت معرفته غير ممكنة . (٣) ولو أن شيئاً كانت معرفته ممكنة لما أمكن نقل هذه المعرفة من شخص إلى آخر (*) (٩٥) . ولم يبق من كتابات غورغياس غير هذه القضايا . وبعد أن استمتع بكرم كثير من الدول وأجورها التي عصا للسيار في تساليا وهدته حكمته إلى استهلاك معظم ثروته الطائلة قبل وفاته (٩٦) . ويؤكد لنا كل من أرنخوا له أنه عاش حتى يبلغ من العمر مائة سنة ونخمس سنين على أقل تقدير ؛ ويقول لنا كاتب قديم إن غورغياس ، وإن بلغ من

(٥) ومعنى هذه القضايا التي يقصد بها الخط من للسفة اتساي التي يقول بها پارمنيدس :

(١) أن لا وجود لشيء خارج الحواس . (٢) وأنه لم يوجد شيء خارج الحواس لما

أمكن معرفته لأن المعرفة جميعها تصل إلينا عن طريق الحواس . (٣) ولو أن شيئاً خارج

دائرة الحواس أمكن معرفته فإن معرفته لا يستطاع نقلها من شخص إلى آخر لأن كل انتقال

للمعرفة لا يكون إلا عن طريق الحواس .

العمر مائة سنة وثمان سنين ، لم يضعف جسمه من طول العمر ، بل ظل إلى آخر حياته في جيد الصحة لا تقل قوة حواسه عن قوة حواس الشباب (١٧) .

وإذا كان السوفسطائيون مجتمعين قد كونوا مدرسة متفرقة ، فإن هيباس الإليسي (Elis) كان مدرسة بمفرده ، وكان أعمدجاً للرجل المتعدد المعارف في عالم لم تكن المعرفة فيه قد بلغت من الاتساع حداً يجعلها في غير متناول عقل واحد . فقد كان يعلم الفلك والرياضيات ، وكانت له بحوث مبتكرة في الهندسة وكان شاعراً ، وموسيقياً ، وخطيباً . وكان يلقي محاضرات في الأدب ، والأخلاق والسياسة ، وكان مؤرخاً ، وضع أساس التاريخ اليوناني وتقويمه وتسلسله بأن جمع ثبوتاً من أسماء الفائزين في الألعاب الأولمبية ؛ وأرسلته إليس مبعوثاً لها لدى دول أخرى ، وكان يعرف من الفنون والحرف عدداً كبيراً أمكنه به أن يصنع ملابسه وأدوات زينته (١٨) . وكان عمله في الفلسفة صغيراً ولكنه خطير ؛ فقد كان يعترض على حياة المدن المصطنعة المؤدية إلى الانحلال ، وبوضوح الفرق بين الطبيعة والقانون ، ويقول : ان القانون ظالم مستبد بالخلق (١٩) . وواصل برودكس ألكيوس عمل پروتاغوراس في النحو ، وحدد أجزاء الكلام ، وأدخل السرور على الشيوخ بوضعه قصة خرافية يصف فيها هرقل وهو يختار الفضيلة المجاهدة بدل الوذيلة الهينة (١٠٠) . ولم يكن غيره من السوفسطائيين أتقياء مثله : وكان منهم أنتيفون الأثيني الذي حذو دمقريطس في ماديته وإنكاره الآلهة ، والذي عرف العدالة تعريفاً يجعلها هي الطريقة الملائمة للظروف الموصلة إلى الغاية المطلوبة ، ومنهم ثرازيماكس الخلقدوني Thrasymachus of Chalcedon الذي قال إن الحق هو للقوة (إذا أخذنا بما يقوله عنه أفلاطون) وإن نجاح الأوغاد ليعت في نفوسنا الشك في وجود الآلهة (١٠١) .

والسوفسطائيين في مجموعهم يعدون من العوامل التي كان لها أعظم الأثر

في تاريخ اليونان ؛ فهم الذين اخترعوا لأوروبا النحو والمنطق ؛ وهم الذين رفقوا فن الجدل ، وحلوا أشكال الحوار ، وعلموا الناس كيف يكشفون الخطأ المنطقي وكيف يمارسونه ؛ وبفضل ما بعثوه في اليونان من حافظ قوى وما ضربوه بأشخاصهم من أمثلة شغف مواطنوهم بالمناظرة والاستدلال ؛ وهم الذين استخدموا المنطق في اللغة فزادوا الأفكار وضوحاً ودقة ، ويسروا انتقال المعرفة انتقالاً صحيحاً دقيقاً . وهم الذين جعلوا للنثر صورة من صور الأدب والشعر ووسيلة للتعبير عن الفلسفة ؛ وطبقوا التحليل على كل شيء ؛ وأبو أن يعظموا التقاليد المتواترة التي لا تؤيدها شواهد الحس أو منطق العقل ؛ وكان لهم شأن كبير في الحركة العقلية التي حطمت آخر الأمر دين اليونان القديم عند طبقات الدهنيين . وفي ذلك يقول أفلاطون : إن « الرأي السائد » في زمنه هو أن « العالم وكل ما فيه من حيوان ونبات . . . وجماد نشأ من علة تلقائية غير مدركة » ولا عاقلة .

ويحدثنا ليسياس Lysias عن وجود مجتمع يكفر بالآلهة يطلق على نفسه اسم « نادى الشياطين kadodatiimoniotai كان أعضاؤه يتعمدون أن يجتمعوا ليطلعوا في الأيام المقدسة التي كان الصيام مقرراً فيها (١٠٣) . وكان يندار في بداية القرن الخامس يقبل ما يتعلق به الوحي في دلفي قبول الأتقياء الصالحين ؛ وكان إسكلس يدافع دفاع السياسيين ؛ وفي عام ٤٥٠ انتقده هيرودوت وهو نخائف وجل ، وكفر به توكيديديس صهره في آخر ذلك القرن ؛ وشكا أو طيفرون Euthyphro من أن الناس كانوا يسخرون منه إذا تحدث عن النبوءات في الجمعية ، ويعدون من البلهاء الذين دالت دولتهم (١٠١) .

وليس من حقنا أن نعزو الفضل في هذا كله إلى السوفسطائيين أو أن نلومهم عليه ؛ فقد كان الكثير منه في الجو الذي يحيط بهم ، وكان نتيجة طبيعية لازدياد الثراء ، والفراغ ، والأسفار ، والبحث والتفكير . وكذلك كان نصيبهم في تدهور الأخلاق أنهم اشتركوا في هذا التدهور (١٦ ج ٢ - مجلد ٢)

مع غيرهم ؛ ولم يكونوا العامل الأساسى فيه ؛ ذلك أن الثراء فى حد ذاته ، إذا لم تقترن به الفلسفة ، يقضى على التزم وعلى الرواقية . ولكن السوفسطائين عجلوا ، فى نطاق هذه الحدود الضيقة وعلى غير علم منهم ، سير حركة الانحلال . لقد كان معظمهم إذا غضضنا النظر عن حبهم الجرم للمال وهو حب متأصل فى طبائع البشر ، من ذوى الأخلاق الطيبة والحياة المحتشمة المهدبة ، ولكنهم لم ينقلوا إلى تلاميذهم التقاليد أو الحكمة التى جعلتهم أو أبقتهم فضلاء رغم علمهم أن المبادئ الخلقية قد نشأت بين نبي الإنسان ولم تنزل عليهم من آلهة السماء ، وأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان . ولعل نشأتهم فى المستعمرات لافى بلاد اليونان الأصلية قد جعلتهم يستخفون بقوة العادة ، بوصفها بديلا سلميا للقوة أو القانون ، فى المحافظة على النظام والأخلاق . ولقد كان تعريفهم للأخلاق أو لقيمة الإنسان تعريفا قائما على أساس المعرفة ، كما فعل پروتاغوراس قبل سقراط بجيل من الزمان (١٠٨) ، كان هذا التعريف باعثا قويا على التفكير ، ولكنه كان ضربة زلزلت قواعد الأخلاق نفسها ؛ كذلك كان توكيد المعرفة وتعظيم شأنها من الأسباب التى زفعت مستوى اليونان العلمى والثقافى ؛ ولكنه لم يقو من ذكائهم بنفس السرعة التى حرر بها عقولهم . ولم يكن قولهم إن المعرفة شىء نسبي سببا فى حمل الناس على التواضع كما يجب أن يكون ، بل إنه أغرى كل إنسان بأن يتخذ من نفسه معيارا يقلد به جميع الأشياء ، فأصبح كل شاب نابه يحس بأنه خليق بأن يحكم على القانون الأخلاقى الذى يسير عليه بنو وطنه ، وأن يرفضه إذا لم يفهمه أو يعجبه ، ثم يصبح بعدئذ حرا فى أن يبرر رغباته حسب ما يراه هو بعقله ، ويقول إنها فضائل النفس التى تحررت من رق القانون . وكانت التفرقة بين « الطبيعة » والعرف ، وميل صغار السوفسطائين إلى القول بأنه ما تبيحه « الطبيعة » خير فى ذاته على الرغم

من حكم العادة أو القانون ، كان هذا الميل وتلك الفترقة عاملاً في تقويض الدعائم القديمة للأخلاق اليونانية ، ومشجعاً للناس على القيام بكثير من التجارب في أساليب العيش . وأخذ الشيوخ بأسفون لانقضاء ما كان يسود المنزل من بساطة وإخلاص ، ولانهماك الناس في السعى وراء اللذة وجمع المال متحليين في ذلك من قيود الدين^(١٠٦) . ويحدثنا أفلاطون وتوكيديدس عن المفكرين والقادة الذين يقولون إن الأخلاق وهم خرافة ، والذين لا يعترفون بأى حق غير حق القوة . وهذه الفردية العارمة التي لا قيد لها من الضمير هي التي جعلت منطق السوفسطائيين وبلاغتهم وسيلة للاحتيال لقانوني والتهريج السياسي ، وحطت من قيمة نزعتهم العالمية الواسعة الأفق فجعلتها مجرد إحجام وحذر عن الدفاع عن بلادهم أو استعداد لبيعها لمن يؤدي فيها أغلى الأثمان ، دون أن يشعروا بشيء من وخز الضمير . وأخذ الزراع المتدينون والأشراف المحافظون يرون ما يراه عامة المواطنين من أهل الحواضر الديمقراطيةين وهو أن الفلسفة قد أصبحت خطراً تهدد كيان الدولة وينلدها بشر مستطير .

واشترك بعض الفلاسفة أنفسهم في مهاجمة السوفسطائيين ، فاتهمهم سقراط (كما اتهم أرسطوفان سقراط من بعد) بأنهم يموهون الخطأ بزخرف المنطق ويقنعونه بقوة البلاغة ، وكان يحتقرهم لأنهم يتقاضون من الناس أجوراً^(١٠٧) ويرر جهله بالنحو بأنه لم يكن يستطيع حضور منهج پرودكس الذي يكلف خمسين درخمة ، ويقول إن كل ما كان في وسعه أن يحضر منهج الدرخمة الواحدة الذي يقتصر على المبادئ الأولية^(١٠٨) . وكتب في ساعة مشثومة تلك المقارنة القاسية يكشف فيها عن أمرهم :

« إنا نعتقد يا أنثيفون أن في وسعنا أن نتصرف في الجمال أو في الحكمة تصرفاً شريفاً أو غير شريف ، فالشخص إذا باع جماله بالمال إلى كل راضع

في شرائه ، سماه الناس « عاهراً » ذكراً ؛ أما إذا صادق إنسان شخصاً يعرف أنه إنسان شريف جليل القدر يعجب به حسبهنا رجلاً فطنا حصيفاً . والدين يبيعون الحكمة بالمال لكل من يتقدم لشراؤها يسميهم الناس سوفسطائين أو عاهري الحكمة إذا صح هذا التعبير . أما من يضحك شخصاً يعرف أنه جدير بصحبته ، ويعلمه كل ما يعرف من الخير فلإننا نصفه بأنه يضطلع بالعمل الذي يليق بالمواطن الشريف^(١٠٩) » ولم ير أفلاطون حرجاً في أن يوافق على هذا الرأي لأنه كان من الأثرياء . وبدأ إسقراط Isocrates حياته بنخبة ضد سوفسطائيين ، ثم صار أستاذاً ناجحاً للبلاغة ، يتقاضى ألف درخمة (ألف ريال أمريكي) عن المنهج الواحد^(١١٠) . وواصل أرسطاطاليس هجومه عليهم وعرف سوفسطائي بأنه الرجل « الذي لا يحرص إلا على ألا يثرى من وراء التظاهر بالحكمة^(١١١) » ، واتهم بروتاغوراس بأنه « يعد الناس يجعل أسوأ الأسباب يبدو كأنه أحسنها^(١١٢) » .

وكان شراً في هذه المأساة أن كلتا الطائفتين كانت على حق . فالشكوى من الأجور كانت غير عادلة . ذلك أنه لم تكن ثمة وسيلة غيرها يستطيع بها الإنفاق على التعليم العالي إلا إذا أمدته الدولة بالمال ؛ وإذا ما انتقد سوفسطائيون التقاليد والأخلاق السائدة في عصرهم فلم يكن ذلك بطبيعة الحال عن سوء قصد فقد كانوا يظنون أنهم بعملهم هذا يمررون الناس من رق العقول ، وكانوا بهذا الوصف وهم الطبقة الراجعة العقل في زمانهم يتصفون بما يتصف به أهل ذلك الجيل من شغف بالحرية العقلية ، وقد فعلوا ما فعله علماء الموسوعات في عصر الاستنارة في فرنسا إذ انقضوا على الماضي الميت انقضاها جديراً بالإعجاب فاكتمسحوه أمامهم دفعة واحدة . ولم يطل عمرهم ، ولم يكونوا بعيدى النظر في تفكيرهم ، حتى يقيموا نظماً جديدة بدل النظم التي قوضها العقل بعد انطلاقه من عقاله . ولا بد في كل حضارة أن يجين الوقت

الذى يتحتم فيه بحث الأساليب القديمة من جديد إذا أريد أن تكيف الحضارة نفسها لكى توائم التغيرات الاقتصادية التى لا تستطيع مقاومتها . ولقد كان السوفسطائيون أداة هذا البحث الجديد ، ولكنهم عجزوا عن أن يضعوا السياسة المؤدية إلى هذا التكيف . وكفاهم فخراً أنهم كانوا حافزاً قوياً لطلب المعرفة ، وأنهم جعلوا التفكير سنة العصر ، وأنهم جاءوا من كافة أركان العالم اليونانى إلى أثينة بأفكار جديدة وأسباب للتفكير جديدة ، وأيقظوا فيها الوعى الفلسفى والنضوج الذهنى . ولولاهم لما وجد سقراط أو أفلاطون أو أرسطاطاليس .

الفصل الخامس

سقراط

١ - قناع سيلينس Silenus

مما يغتبط له الإنسان أن يقف آخر الأمر وجهاً لوجه أمام شخصية تبدو في ظاهر أمرها واقعية كشخصية سقراط . ونقول في ظاهر أمرها لأننا إذا تدبرنا المصدرين اللذين لا مناص لنا من الاعتماد عليهما في كل ما نعرفه عن سقراط ، وجدنا أن أحدهما وهو أفلاطون يكتب مسرحيات خيالية ، وأن الآخر وهو أكسانوفون يكتب روايات تاريخية ، وهذه وتلك لا يمكن أن تعدا من التاريخ الصادق الصحيح . وقد كتب ديوجين ليرتيوس في ذلك يقول : « يقولون إن سقراط حين سمع أفلاطون يقرأ الليسيس Lysis صاح قائلاً : أى هرقل ! ما أكثر الأكاذيب التي قالها عنى هذا الشاب ! ذلك بأن أفلاطون قد أنطق سقراط بأشياء كثيرة لم ينطق هو بشيء منها (١١٣) » .

والحق أن أفلاطون لا يدعى بأنه يقصر أقواله على الحقائق ؛ وأكبر الظن أنه لم يدر بخلده قط أن المستقبل قد يعدم الوسائل التي يفرق بها بين ما هو سيرة حقة وما هو من نسج الخيال في كتابه . ولكن أفلاطون يرسم في المحاورات صورة منسقة لأستاذه من أيام شباب سقراط الوجمل في البارمنيدس وثرثرته الوقحة في البروتاغوراس إلى تقواه المكبوتة واستسلامه في الفيديون ، لا يسع الإنسان معها إلا أن يعتقد أنه إذا لم يكن هذا سقراط بحق فإن أفلاطون يعد من أكبر مبتدعي الشخصيات في الأدب بأجمعه . ويعتقد أرسطاطاليس أن الآراء المعزوة إلى سقراط في البروتاغوراس هي آروءه بحق (١١٤) . وقد كشفت

حديثاً هتامات من كتاب عن ألقبيادس كتبها إسكينز الاسفتوزى *Aeschines of Sphettos* أحد تلاميذ سقراط نفسه ترجح تأييد الصورة التي رسمها له أفلاطون في الأجزاء الأولى من محاوراته كما ترجح تأييد قصة العلاقة الوثيقة التي كانت بين الفيلسوف وبين ألقبيادس (١١٥). غير أن أرسطاطاليس من جهة أخرى يعد الذكريات *Memorabilia* والمائدة *Banquet* من القصص الموضوعية أى الأحاديث الخيالية التي يردد سقراط في أكثرها آراء أكسانوفون(*) نفسه (١١٦) وإذا كان أكسانوفون قد صدق فيما نقله عن سقراط صدق إكرمان *Eckerman* فيما نقله عن جيته ، فإن كل ما نستطيع أن نقوله في هذه الحال أنه عنى بجمع سخافات المعلم التي لا ضرر منها ، بأنه ليس من المعقول أن رجلاً أوتي من الفضائل ما أوتي سقراط حسب ما وصفه به أكسانوفون يستطيع أن يقلب الحضارة القائمة رأساً على عقب . على أن غير أكسانوفون من الكتاب الأقدمين لم يصوروا الحكيم القديم في صورة القديسين الصالحين كما صوره أكسانوفون . من ذلك أن أرسطوقسانيس التارنتى *Aristoxenus of Tarentum* ينقل عن أبيه - الذى يدعى أنه كان يعرف سقراط شخصياً - حوالى عام ٣١٨ أن الفيلسوف كان شخصاً مجرداً من التعليم « جاهلاً فاجراً » (١١٧) ، وأن يوبوليس *Eupolis* الشاعر الهزلى فاق منافسه أرسطوفان في الافتراء على المشاء العظيم (١١٨) . وإذا أسقطنا من حسابنا ما يجر إليه الجدل من قسوة في اللفظ اتضح لنا على الأقل أن سقراط كان رجلاً نال من كره الناس وحبهم أكثر مما ناله أى إنسان آخر في عصره .

وكان أبوه مثلاً ، ويقال إنه هو نفسه نحت تمثالاً لهرمس ، وآخر لربات القدر الثلاث أقيم قرب مدخل الأكربوليس (١١٩) . أما أمه فكانت قابله ، وكان من الفكاهات التي لا ينفك ينطق بها عن نفسه أنه لم يفعل أكثر من

(*) وفي الكتاب الثالث من الذكريات يطلق أفلاطون سقراط بشرح الأساليب والحيل الحربية .

حواصلة حرفة أمه ، ولكنه نقلها إلى دائرة الأفكار ، فكان يساعد غيره على أن يخرجوا للعالم آراءهم . وتقول إحدى الروايات إنه ابن أحد الأرقاء (١٢٠) ، ولكننا نرجح بطلان هذه الرواية لأنه عمل هيلينا أى جنديا فى فرق المشاة الثقيلة (وذلك واجب لا يضطلع به إلا المواطنين (١٢١)) ، وأنه ورث عن أبيه بيتا ، وكان عنده من المال سبعون مينا (٧٠٠٠ ريال أمريكى) ، يستثمرها له صديقه أقريطون (١٢١) ؛ أما فيما عدا هذا فإنه يصو لنا على أنه رجل فقير (١٢٢) . وقد عنى عناية كبيرة بصحة جسمه ، وكان غالب أيامه قوى البنية جيد الصحة ، واكتسب شهرة فائقة فى الجندية أثناء حرب البلوونيز ؛ وحارب فى بوتيديا Potidaea عام ٤٣٧ ، وفى ديليوم Delium عام ٤٢٤ ، وفى أمفوليس عام ٤٢٢ . وفى بوتيديا أنقذ حياة الشاب ألقيداس وسلاحه ، ونزل عن جائزة الشجاعة لإكراما لخاطر هذا الشاب ، وفى ديليوم كان آخر من تقهقر من الأثينيين أمام الاسبارطيين ، ويلوح أنه أنجى نفسه بالتجديق فى العدو ، فخافه الاسبارطيون وهم قوم لا يخافون . ويقال إنه فى هذه الوقائع كلها بز جميع أقرانه فى قوة الاحتمال وفى الشجاعة ، وإنه كان يصبر على الجوع والتعب والبرد فلا يشكو ولا يتملل (١٢٣) . أما فى بلده ، إذا طوعته نفسه على الإقامة فيه ، فكان يشتغل بقطع الأحجار ونحت التماثيل ؛ ولم يكن مولعا بالأسفار ، وقلما كان يخرج من المدينة ومرفئها . وتزوج من إكسانثي Xanthippe التى كانت تعيب عليه إهماله شئون أسرته ؛ فكان يعترف بعدالة شكواها (١٢٤) ، ويثنى على كرم أخلاقها وحسن معاملتها لابنه وأصدقائه . ولم يكن الزواج يضايقه قط فقد يبدو أنه اتخذ لنفسه زوجة ثانية حين أباح القانون تعدد الزوجات مدة قصيرة لكثرة من قتل فى الحروب من الذكور (١٢٥) .

والعالم كله يعرف وجه سقراط وملاحه .. وإذا حكمنا عليه من تمثاله النصقى المحفوظ فى متحف ترمى Museo dell Terme برومة ، وذلك حكم لا يستند إلى

أساس قوى ، قلنا إنه إنه لم يكن أنموذجاً صادقاً للوجه اليونانى (١٢٩) . ذلك أن سعة وجهه ، وأنفه الأفتس العريض ، وشفتيه الغليظتين ، ولحيته الكثة ، كلها توحى بأنه ينتمى إلى أرض السهوب التى جاء منها أناكارسيس Anacharsis صديق صولون ، أو ذلك السكودى الحديث تولستوى . وقد كتب عنه ألقبيادس فى إصرار عجيب ، حتى فى الوقت الذى يجهر فيه بحبه يقول : « أقول إن سقراط يشبه كل الشبه أقنعة سيلينس ، التى يمكن رؤيتها فى حوانيت التماثيل ، وفى أفواهاها مزامير وصفارات ، وتفتتح فى أوساطها فترى فى داخلها صور الآلهة . وأقول أيضاً إنه يشبه مارسياس Marsyas الكائن الخرافى الذى يتكون نصفه الأعلى من إنسان ونصفه الأسفل من ماعز (satyr) ، ولست أعتقد أنك يا سقراط تنكر أن وجهك هو وجه ذلك المخلوق الخرافى (١٣٠) » . ولم يعترض سقراط على هذا القول ، بل إنه فعل ما هو شر من هذا فقد اعترف بأن له كرشاً مفرطاً فى الكبر وأنه يرجو أن ينقصها بالرقص (١٣١) .

ويثفق أفلاطون وأكسانوفون فى وصفهم عاداته وأخلاقه . من هذه أنه كان يقنع بثوب بسيط رث يلبسه طول السنة ، ويفضل الخفاء على الأجلية أو الانخفاف (١٢٢) . وقد تبحر إلى حد لا يصدق العقل من داء التملك الويل المصاب به الجنس البشرى ، ويقال إنه أبصر ذات مرة كثرة البضائع المعروضة للبيع فقال : « ما أكثر الأشياء التى لا أحتاجها (١٣٣) ! » وكان يشعر بأنه غنى فى فقره . وكان مضرب المثل فى الاعتدال وضبط النفس ، ولكنه ، كان أهد الناس عن حياة القديسين . وكان فى وسعه أن يشرب كما يشرب أى رجل مهذب مثقف ، ولم يكن فى حاجة إلى الزهد لكى يحتفظ باستقامة خلقه (٥) . ولم يكن ناسكاً يعتزل الناس ؛ بل كان

(٥) يقول أكسانوفون هل لسان سقراط : « إذا سألتى من الشراب قلت لك إن الخمر تترطب النفس ، وتسكن الأحران ... ولكنى أظن أن أجسام الناس كأجسام النبات. ... وأن الله إذا نهر النبات بالماء ليرتوى منه لم ينهر على الوقوف متدلاً ، ولم يمكن التسليم من =

يجب الرفقة الطيبة ، وكان لا يأتي أن يدعى إلى ولائم الأغنياء من حين إلى حين ، ولكنه لم يخضع لهم أو ينحني امثالاً لأمرهم ، وكان في وسعه أن يعيش أحسن العيش دون معونتهم ، وكان يرفض هدايا الكبراء والملوك وولاتهم^(١٣٥) . وجملة القول أنه كان رجلاً محظوظاً يعيش من غير كد ، ويقراً من غير أن يكتب ، ويعلم من غير أن يلتزم خطة رتيبة ، ويشرب دون أن يدور رأسه ، ثم يموت قبل أن يدركه وهن الشيخوخة ، وكان موته بلا ألم .

وكانت أخلاقه أحسن الأخلاق الملائمة لعصره ، ولكنها أخلاق يصنع أن يرضى بها كل الرجال الصالحين الذين يثنون عليه . فقد « سرت نار » الحب في جسمه حين رأى كرميدس Charmides ، ولكنه ضبط عواطفه بأن سأل نفسه هل لهذا الفتى هو الآخر « نفس نبيلة^(١٣٦) ؟ » . ويصف أفلاطون سقراط وألقيادس بأنهما عاشقان ، ويقول عن الفيلسوف إنه « يطارد الفتى الوسيم^(١٣٧) » ؛ والشيخ وإن كان يبدو أنه قد جعل حبه في الغالب حباً أفلاطونياً ، لم يستنكف أن يقدم النصيح للاطنين والسراى عن خير الوسائل لاصطياد المحبين . وقد دفعته شهامته إلى أن يعد الحظية ثيودورا بمعونته ، وقد جازته على هـله المعونة بدعوتها إياه أن « يتردد عليها ليزورها^(١٣٨) » . ولم تكن تفارقه دعايته ورقة حاشيته ، ومن أجل هذا فإن الذين يطبقون آراءه السياسية يجدون من السهل عليهم أن يمتثلوا أخلاقه . ولما قضى نحبه قال عنه أكسانوفون إنه بلغ من إنصافه أنه لم يتظلم إنساناً حتى في أتفه الأمور . . . ، وبلغ من عدالته أنه لم يفضل في وقت من الأوقات اللذة عن الفضيلة ؛ وبلغ من حكمته أنه لم يخطئ قط في تمييز الخبيث من الطيب ؛ ومن قدرته على تبيين أخلاق الناس ومن حضهم على اتباع سبيل الفضيلة

— أن يمرى في خلاله ، ولكنه إذا لم يشرب إلا بالقدر الذى يكفيه لأن يستمتع به نما واستوى حل سوته وأتمر أكل الثمار وأودها .

والشرف أن بدا أنه بلغ أحسن ما يأمله أحسن الناس وأسعدهم (١٤٠) : وقد عبر أفلاطون عن هذا المعنى نفسه ببساطة خلاصة فقال إنه « كان بحق أعقل ، وأعدل ، وأحسن من عرفت من الناس في حياتي كلها » (١٤١) .

٢ - صورة ذبابة الخليل

وإذا كان سقراط طلعة محباً للجدل فقد عمد إلى دراسة الفلسفة وأعجب وقتاً ما بالسوفسطائيين الذين غزوا أثينة في أيام شبابه . وليس لدينا شاهد على أن أفلاطون قد اخترع نبأ اللقاء سقراط ببارمينيدس ، وپروتاغوراس ، وغورغياس ، وپروذكس ، وهيبياس ، وثرامكس ، وما دار في لقائه بهم من الأحاديث ؛ وليس يبعد أيضاً أن يكون قد رأى زينون حين وفد هذا إلى أثينة حوالي عام ٤٥٠ ق . م وأنه تأثر بجدله تأثراً لم يفوقه طول حياته (١٤٣) . وأكبر الظن أنه عرف أنكساغورس بشخصه إن لم يكن عن طريق مبادئه ، وذلك لأن أركلوس الملطي تلميذ أنكساغورس كان في وقت ما معلم سقراط . وقد بدأ أركلوس هذا حياته العلمية عالماً في الطبيعة ثم اختتمها بأن كان دارساً لعلم الأخلاق ، وقد فسر هذا العلم وأساسه على قواعد العقل ، ولعله هو الذي حول سقراط من الطبيعة إلى علم الأخلاق . ومن هذه الطرق كلها وصل سقراط إلى الفلسفة ، ومد تم له ذلك وجد « الخير أعظم الخير في حديثي كل يوم عن الفضيلة ، وفحصي عن نفسي وعن غيري ، لأن الحياة التي لا يفحص عنها غير خليقة بالرجال » (*) . وهكذا أخذ يطوف بمعتقدات الناس ، يخزهم بالأسئلة ، ويطلب إليهم إجابات دقيقة محددة وآراء منسقة غير متناقضة ، ويلقي الرعب في قلب كل من لا يستطيع أن يتحدث حديثاً واضحاً ، وحتى في الجحيم نفسه يعرض أن يكون مشاء طلعة

« يعرف مَنْ من الناس حكيم ومن منهم يدعى الحكمة وهو من غير أهلها^(١٤٤) » وقد حى نفسه من التعرض لأسئلة الناس ومناقشتهم إياه بمثل ما يناقشهم هو بأن أعلن أنه لا يعرف شيئاً . . وأنه يعلم الأسئلة جميعاً ولكنه لا يعلم شيئاً من أجوبتها ؛ وقال عن نفسه متواضعاً إنه من « هواة الفلسفة^(١٤٥) » . ولعل الذى يقصده بقوله هذا أنه ليس واثقاً من شىء غير تعرض الإنسان للخطأ ، وأنه ليس لديه طائفة من العقائد والمبادئ المقررة الجامدة : ولما أن أجاب مهبط الوحي فى دلقى جوابه المزعوم عن سؤال كريفون Charephon المزعوم : « هل فى الناس من هو أعدل من سقراط » وهو : « لا أحد^(١٤٦) » ، عزا سقراط هذا الجواب إلى اعترافه هو بجهله ، وشرع من تلك اللحظة يقوم بذلك الواجب العملى واجب الحصول على أفكار واضحة ، وقال عن نفسه : « إنه سيتحدث عن حين إلى حين عما يهم الجنس البشرى ، فيبحث عن الصالح وغير الصالح ، والعادل وغير العادل ، وما يتفق مع العقل وما لا يتفق معه ، وعما يعد شجاعة وما يعد جبناً ، وعن ماهية الحكومة التى تسيطر على الناس ، وعن صفات الرجل البارع فى حكمهم ، ثم يستطرد إلى موضوعات أخرى . . يرى أن من يجهلونها يعدون بحق طبقة العبيد^(١٤٧) » . وكان إذا صادف فكرة غامضة . أو تعميماً هيناً غير قائم على الحقائق ، أو هوى خامر المتحدث إليه على غير علم منه ؛ يتحدث محدثه بقوله : « ما هو ؟ » ثم سأله أن يحدد ما يقول تحديداً دقيقاً . وأصبح من عادته أن يصحو مبكراً ؛ ويلهب إلى السوق العامة ، أو ساحات الألعاب أو مدارسها أو إلى حوانيت الصناع ، ويأخذ فى مجادلة أى إنسان يتوسم فيه الذكاء الحافظ أو الغباء المسلى ، وكان يسأل : « ألم يعمل الطريق إلى أثينة لكى يتحدث الناس فيه^(١٤٨) » ، وكانت الطريقة التى يتبعها سهلة خالية من التعقيد : كان يطلب إلى من يحدثه أن يعرف فكرة عامة شاملة ، ثم يبحث هذا التعريف ليكشف

في العادة عما فيه من نقص ، و تنقض ، أو يخف وبطلان ؛ ثم يستدرج محدثه بأسئلته المتعاقبة إلى تعريف آثم وأصح لا يقوله هو أبدا . وكان ينتقل أحيانا إلى فكرة عامة أو عرض فكرة أخرى جديدة يبحث سلسلة طويلة من الحالات المفردة الخاصة مكتته من أن يدخل قدراً من طريقة الاستقراء في المنطق اليوناني ؛ وكان في بعض الأحيان يكشف بطريقة التهكم السقراطي المشهور عن النتائج المضحكة السخيفة التي تترتب على التعريف أو الرأي الذي يريد أن يهدمه . وكان مولعاً بالتفكير المنظم خوفاً به ، يجب أن يصنف الأشياء المفردة حسب جنسها ، ونوعها ، وما بينها من فوارق معينة ، وبذلك مهد السبيل إلى طريقة أرسطاطاليس في التعريف ، وإلى نظرية أفلاطون في الأفكار . وكان يصف الجدل بأنه فن التمييز بين الأشياء بعناية ، وأثار دياجير المنطق المظلمة بفكاهته التي قدر عليها ألا يطول أجلها في تاريخ الفلسفة .

وكان معارضوه يعيرون عليه أنه يهدم ولا يبني ، وأنه يرفض كل جواب ولا يجب هو بشيء من عنده ، وأنه بهذا أفسد الأخلاق وشل التفكير ، وأنه في كثير من الحالات ترك الفكرة التي أراد أن يوضحها وهي أكثر غموضاً من ذي قبل . وكان إذا حاول شخص حازم مثل أقرتياس Critias أن يسأله حول جوابه إلى سؤال آخر فأصبحت له من فوره ميزة على سائله . نعم إنا نراه في البروتاغوراس يعرض أن يجيب عن الأسئلة لأن يسأل ؛ ولكن هذه النية الطيبة لا تدوم إلا لحظة قصيرة ، وعندئذ ينسحب پروتاغوراس ، وهو الذي تدرس في المنطق من زمن طويل ، من ميدان الجدل هدهد^(١١٩) . ويستشيط هيبياس غضباً من تملص سقراط وهروبه من الإجابة عما يوجه إليه من أسئلة ، ويرفع عقيرته بقوله : « قسما بزيوس إنك لن تسمع (جوابي) حتى تعلن أنت ما ترى أنه العدالة ؛ لأنه لا يكفي أن تسخر من الناس ، وأن تسأل كل إنسان وتربكه ، ثم تأتي أن تفصح

عن سبب لى إنسان ، أو أن تعلن عن رأيك فى موضوع ما(١٠٥) . وقد أجاب سقراط عن هذا التقرير وأمثاله بقوله إنه ليس إلا قابلة كأمه ؛ « إن اللوم الذى يوجه لى كثيرا ، وهو أنى أسأل الناس أسئلة وأن ليس لى من العقل ما أستطيع به أن أجيب عنها ، لوم عادل لا اعتراض لى عليه ، وسببه أن الله أرغنى على أن أكون قابلة ، ونهاى عن أن ألد(١٥١) ، وذلك لعمرى هروب واضح ما أخلقه بصديقه يورپديز .

وهو يشبه السوفسطائين من وجوه كثيرة ، ولم يكن الأثينيون يترددون فى أن يطلقوا عليه هذا الاسم ، على أنهم لم يكونوا يقصدون بهذا أن يعيبوه أو ينقصوا من قدره(١٥٢) . والحق أنه كان سوفسطائيا بالمعنى الحديث لهذا اللفظ أى أنه كان بارعاً فى المراوغات المماكرة ، والحيل الجدلية ، يبدل مجال الألفاظ أو معانيها بمحذوق ودهاء ، ويفرق المسألة التى يجادل فيها بالتشبيهات والاستعارات المفككة ، ويماحك ويفالط كما يفالط صبيان المدارس ، ويحارب بالألفاظ حرب الأبطال ولكن لى غير غاية(١٥٣) . وقد يعفو الإنسان عن جرعه السم لأننا لا نرى أن ثمة آفة شرا من المنطقى العارف بقوة منطقته . وكان يختلف عن السوفسطائين فى أربعة أمور : كان يكره البلاغة ، وكان يرغب فى تقوية الأخلاق ، ولم يكن يدعى أنه يعلم أكثر من فن بحث الأفكار ، وكان يأبى أن يأخذ أجراً على تعليمه - وإن كان يبدو أنه قبل فى بعض الأحيان عوناً من بعض الأغنياء من أصدقائه(١٥٤) . وكان تلاميذه يحبونه أشد الحب رغم عيوبه التى كانت تضايقهم ، وقد قال مرة لواحد منهم : « ربما استطعت أن أساعدك فى السعى لنيل الشرف والفضيلة ، لأن كلامنا يميل لى حب صاحبه ؛ وأنا إذا أحببت الناس من كل قلبى وبادلونى هم حبهم من كل قلوبهم ، يسوءنى غيابهم عنى كما يسوءهم غيابى عنهم ، وأتوق لصحبتهم كما يتوقون لصحبتى(١٥٥) .

ويعتبر أرسطوفان في رواية السحب تلاميذ سقراط بأنهم قد أنشأوا مدرسة ذات مكان معين يجتمعون فيه ، وفي أكسانوفون فقرة تؤيد هذه الفكرة بعض التأييد^(١٥٦) ؛ ولكنه يصور لنا عادة بأنه يعلم في أى مكان يجده فيه من يعلمه ، أو من يستمع إليه ؛ غير أننا لا نجد عقيدة خاصة أو مبدأ خاصاً يجمع عليه أتباعه ، فقد كانوا يختلفون فيما بينهم اختلافًا بلغ من شدته أن أصبحوا زعماء لأشد المدارس اختلافًا في بلاد اليونان - الأفلاطونية ، والكلبية ، والرواقية والأبيقورية ، والتشككية . فكان منهم انتسان Antisthenes الفخور الدليل الذى أخذ عن أستاذه مبدأ البساطة في الحياة وحاجاتها ؛ وأسس المدرسة الكلبية . ولعله كان حاضرًا حين قال سقراط لأتيتيون : « يبدو أنك تظن أن السعادة في الترف والإسراف ؛ أما أنا فأرى أنك إذا لم تكن في حاجة إلى شيء كنت شبيهًا بالآلهة ، وأنتك إذا أقلت من حاجاتك قدر استطاعتك أصبحت أقرب ما تكون إلى الآلهة^(١٥٧) » . وكان منهم أيضًا أرسطوبوس الذى بنى على اعتراف سقراط بأن « في اللذة خيرًا » العقيدة التى نشرها بعدئذ في قوريني Cyrene والتي دعا إليها أبيقور أتينية فيما بعد . ومنهم إقليدس الميغارى الذى جعل من الجدلية السقراطية تشككية تنكر المقدرة على كل معرفة حقة . وكان منهم الشاب فيدون الذى كان قد انحط إلى طبقة العبيد ثم اقتداه قريطون Crito بليعاز سقراط ، وأحب سقراط هذا الشاب و « جعله فيلسوفًا » . وكان منهم أكسانوفون التلق المضطرب الذى تحلى عن الفلسفة ليكون جنديًا ، ولكنه أثبت أن « لا شيء أعظم نفعًا من صحبة سقراط ، والتحدث إليه في أية مناسبة وفي أى موضوع مهما يكن شأنه^(١٥٩) » . ومنهم أفلاطون الذى تأثر تخياله القوى بالفيلسوف الحكيم تأثرًا لم يفارقه طول حياته حتى امتزج العقلان وصارا في تاريخ الفلسفة عقلا واحداً . ومنهم أقريطون الثرى ، الذى كان يهيم حبًا بسقراط ، والذى كان يحرص أشد الحرص على ألا يكون الفيلسوف الكبير في حاجة إلى

شيء ما (١٦٠) . وكان منهم الشاب القيادس المتهور الجريء الذى أساء بعدم وقائه إلى معلمه ، وعرضه للأخطار فى مستقبل الأيام ، ولكنه كان فى الوقت الذى نتحدث عنه يجب سقراط ويهيم به هيام الواله المتيم ، والذى يقول فيه :

« إنا إذا سمعنا متحدثا غيرك ، وإن كان من أحسن الناس حديثاً ، لم يكن لألفاظه أثر قط إذا قورنت بألفاظك ؛ أما نتف ألفاظك أنت يا سقراط ، ولو لم نسمعها منك أنت بل نقلت إلينا عنك مهما أخطأ فيها الناقلون ، أما هذه التفت فلإنها تحلب الألباب وتستحوذ على نفس كل رجل أو امرأة وكل طفل يستمع إليها . . . وإنى لأعرف أنى إذا لم أصم أذنى عن سماع أقواله وأفر من صوته الذى يسلب العقل للازمته حتى بلغ سن الشيخوخة وبقيت جالسا تحت قدميه . . . ولقد أحسست فى نفسى أو قلبى . . . بذلك الألم الشديد الذى هو أشد إيلاما لنفس الشاب الشريف من أنياب الأفاعى ألا وهو ألم الفلسفة . . . وأنت يا فيلروس وأنت يا أغاثون ، وأنت يا إركسما كوس ، وأنت يا پوزنياس ، وأنت يا أرسطوديمس وأنت يا أرسطوفان ، أنتم كلكم ، ولا حاجة لى بأن أصم إليكم سقراط نفسه ، قد طافت بكم هذه التجربة نفسها وشغقتم بالفلسفة شغفى أنا بها (١٦١) .

وكان منهم الزعيم الأجركى كرتياس الذى يستمتع بتهمك سقراط على الديمقراطية والذى كانت له يد فى إدانته بأن كتب مسرحية وصف فيها الآلهة بأنها من ابتداع مهرة الصناعات الذين يستخدمونها كما يستخدم خفراء الليل ليرهبوا بها الناس ويرغموهم على حسن الأدب (١٦٢) . وكان منهم أيضاً ابن الزعيم الديمقراطى أنيتوس Anytus وهو شاب آثر أن يستمع إلى حديث سقراط عن العناية بعمله وهو الانجارى الجلود . وشكا أنيتوس من أن سقراط قد أفسد عقل الغلام بما بث فيه من تشكك ، فلم يعد يبجل أبويه أو يعظم الآلهة ؛

هذا إلى أن أنيتوس كان يشتم من نقد سقراط للديمقراطية(*) (١٦٣) ويقول :
« أى سقراط ! إني أظنك مفرطاً في استعدادك لأن تتحدث بالشر عن
الناس ، فإذا قبلت نصحي أشرت عليك أن تصطنع الخلد ؛ ولعله لا توجد
قط مدينة ليس إيذاء الناس فيها أيسر من عمل الخير لهم ؛ وتلك بلاشك حال
أثينة نفسها (١٦٤) » وأخذ أنيتوس يتربص به الدوائر .

٣ - فلسفة سقراط

وكان من وراء هذه الطريقة فلسفة مراوغة ، تجريبية ، تجرى على غير
نظام ، ولكنها فلسفة بلغ من جديتها وحقيقتها أن مات الرجل في واقع الأمر
من أجلها . وقد يبدو لأول وهلة أن ليست هناك فلسفة سقراطية ، ولكن
أكبر السبب في هذا أن سقراط قبل نزعة بروتاغوراس النسبية فرفض النزعة
التحكيمية ولم يكن واثقاً إلا من جهله .

وقد حكم على سقراط لأنه لا يؤمن بالدين ، ولكنه مع هذا كان يعبد
آلهة المدينة بلسانه إن لم يعبدها بقلبه ، ويشترك في احتفالاتها الدينية ،
ولم يعرف عنه أنه نطق مرة بكلمة تدل على عدم تقواه (١٦٦) . وكان
يعترف بأنه يتبع في جميع قراراته الهامة السلبية روحاً Diamonion داخلياً
كان يصفه بأنه إشارة من السماء ، ومن يدرى فلعل هذا الروح كان هو
الآخر سخريه من سخريات سقراط وتهكماته ؛ فإن كان كذلك فإن سقراط
لم يكن يتفك يؤكد دعواه هذه تأكيداً عجيباً ؛ ولم تكن هذه الدعوى
إلا مثلاً من أمثلة عدة لالتجاء سقراط إلى النبوءات والأحلام وقوله إنها
وحي من عند الآلهة (١٦٧) . وكان يقول إن في الكون من الأمثلة الدالة على
التناسق المدهش العجيب ، ومن الخطة الواضحة المرسومة ، ما لا يصح معه

(*) ولعل أنيتوس ، كما يذكر لنا فلوطرخس وأنيليس ، كان يعشق ألقبيادس ولكن
ألقبيادس لم يبادل له الحب وفضل عليه سقراط (١٦٤) .

أن يعزى وجود العالم إلى الصدفة المحضة أو إلى أية علة غير عاقلة ، أما الخلود فلم يكن واثقاً منه . مثل هذه الثقة أوقاطها في أمره هذا القطع ؛ فهو يستمسك به ويدافع عنه في الفيلون Phaedo أما في الأپولوجيا Apology فهو يقول : « إذا جاز لي أن أدعى بأنى أكثر حكمة من غيرى فسبب ذلك أنى لا أعتقد أن عندى كثيراً من العلم بالدار الآخرة ، وأنا في واقع الأمر لا علم لي بها على الإطلاق » (١٦٨) . ويطبق هذه النزعة اللاأدرية نفسها على الآلهة في كتابه الكراتلس فيقول : « أما الآلهة فلسنا نعرف عنها شيئاً » (١٦٩) . وكان ينصح أتباعه بالأبجادلوا في مثل هذه الأمور ، يسألهم كما يسأل كنفوشيوس أتباعه هل عرفوا شئون البشر حق المعرفة فأصبحوا بعدئذ على استعداد لأن يتدخلوا في شئون السماء (١٧٠) ؟ وكان يحس أن خير ما فعله في هذه الناحية . أن نقر بجهلنا ، وأن نطيع في الوقت نفسه وحى دلتى حين سئل كيف يعبد الإنسان الآلهة فأجاب : « حسب قانون بلادكم » (١٧١) .

وكان يطبق هذا التشكك نفسه تطبيقاً أشد من هذا صراحة في العلوم الطبيعية فيقول إن من واجب الإنسان ألا يزيد في دراستها على القدر الذى يهتدى به في حياته ؛ أما فيما عدا هذا فإن هذه العلوم يبدأ بضل فيها العقل ، يكشف كل لغز غامض فيها حين يحل عن لغز آخر أشد منه غموضاً (١٧٢) . وكان في شبابه قد درس العلوم الطبيعية مع أركلوس Archelaus ، فلما كبر ونضج عقله تركها وهو يعتقد أنها أسطورة خداعة إلى حد ما ، ولم يعد يهتم بالحقائق أو بأصول الأشياء بل وجه اهتمامه إلى القيم والغايات . وفي ذلك يقول أكسانوفون « إنه كان على الدوام يتحدث في البشرية » (١٧٤) . وكان السوفسطائيون أيضاً قد حولوا اهتمامهم من العلوم الطبيعية إلى الإنسان ، وبدعوا يدرسون الإحساس ، والإدراك والمعرفة ، ولكن سقراط تعمق أكثر من هذا في داخل الإنسان وأخذ يدرس الأخلاق والأغراض البشرية : « قل لي يا يوثيديموس ،

هل ذهبت في حياتك إلى دلتى ؟ : وهل لاحظت ما هو مكشوف على جدار الهيكل - أعرف نفسك ؟ ، نعم لاحظته . « وهل لم تفكر في هذه الكتابة ، أو هل عنيت بها ، وحاولت أن تفحص عن نفسك وتعرف عن يقين أخلاقك ؟ » (١٧٥) .

فلم تكن الفلسفة إذن عند سقراط هي الدين ، أو ما وراء الطبيعة ، أو الطبيعة نفسها ، بل كانت علم الأخلاق والسياسية ، مدخلها والوسيلة إليها المنطق ، وإذا كان قد عاش في ختام عصر السوفسطائيين فقد أدرك أن هذه الطائفة قد أوجدت حالة من أشد الحالات خطورة في تاريخ أية ثقافة من الثقافات وتلك هي إضعاف أحد الأبنس التي تقوم عليها الأخلاق ونعني به حوارق الطبيعة . وبعد أن أدرك هذا لم يعد خائفاً مرتاعاً إلى الإيمان بالدين بل سلك السبيل إلى أعمق الأسئلة في علم الأخلاق : هل يستطيع وجود علم للأخلاق قائم على أساس من الطبيعة ؟ أى يمكن أن تبقى الأخلاق من غير الاعتقاد بحوارق الطبيعة ؟ وهل في مقدور الفلسفة إذا صاغت قانوناً قوياً أخلاقياً دنيوياً غير ديني أن تنقذ الحضارة التي تهددها حرمتها الفكرية بالانهايار والزوال ؟ وحين يقول سقراط في الأوطيفرون أن ليس الخير خيراً لأن الآلهة ترضى عنه ، بل إن الآلهة ترضى عن الخير لأنه خير ، حين يقول هذا يعرض في واقع الأمر ثورة فلسفتنا ولم تكن فكرته عن الخير فكرة دينية ، بل كانت فكرة دنيوية إلى حد يجعلها نفعية . فهو يرى أن الصالح ليس فكرة عامة مجردة ، ولكنها فكرة خاصة عملية فالصالح صالح لشيء ما ، والصالح والجمال شكلان من أشكال المنفعة والفائدة البشرية ، وحتى السبله من الروث تكون جميلة إذا أحسن إعدادها للغرض الذي تؤديه (١٧٦) . وإذا لم يكن ثمة (في رأى سقراط) شيء غير المعرفة يعادلها في نفعها ، فإن المعرفة هي أسمى الفضائل والرذيلة جميعها هي الجهل (١٨٧) ، وإن كان المقصود بالفضيلة (arete) هنا هو التفوق لا البراعة من الذنوب . والعمل الصالح غير مستطاع بغير المعرفة الحقة ، وبالمعرفة الحقة يكون العمل الصالح أمراً محتوماً لا مفر منه ،

والناس لا يفعلون قط ما يعرفون أنه خطأ - أى مضاد للعقل ، ضار بهم .
وأسمى أنواع الخير والسعادة ، وخير سبيل للوصول إليها هى سبيل المعرفة
أو الذكاء .

ويقول سقراط إنه إذا كانت المعرفة هى أسمى الفضائل كانت الأرسقراطية
خير أشكال الحكم ، وكانت الديمقراطية سخفاً وعبثاً . وفى ذلك يقول
أكسانوفون على لسان سقراط : « من السخف أن نختار الحكام بالقرعة على
حين أن أحداً لا يفكر قط فى أن يختار بالقرعة مرشد السفن أو البناء أو النافخ
فى الناي ، أو أى صانع على الإطلاق ، مع أن عيوب هؤلاء أقل ضرراً من
عيوب أولئك الذين يفسدون حكوماتنا » (١٧٩) . وهو يعيب على الأثينيين حبهم
للتقاضى . ونحاسدهم الصاحب ، ومرارة أحقادهم ومنازعاتهم السياسية ؛
ويقول ذلك : « ولهذا الأسباب ترانى على الدوام أخشى أشد خشية أن يحل
بالدولة شر تنوء به وتعجز عن تحمله » (١٨٠) . وكان يظن أن لا شىء ينجى
أثينة إلا حكم أصحاب المعرفة والكفاية ، وليست السبيل إلى هذا الحكم هى
الاقتراع ، كما أن الاقتراع لا يصلح سبيلاً لتقدير كفاية مرشد السفن
أو الموسيقى أو الطيب أو النجار . كذلك يجب ألا يختار موظفو الدولة على
أساس جاههم أو ثرائهم ؛ ذلك أن الاستبداد وسلطان المال لا يقل شرهما عن
شر الديمقراطية . والسبيل الوسطى المعقولة هى النظام الأرسقراطى الذى تقصر
فيه المناصب على الذين تؤهلهم لها عقولهم والذين يدربون على القيام بما
تطلبه . من الواجبات (١٨١) . على أن سقراط كان يعترف بما للديمقراطية
الأثينية من مزايا رغم ما يوجهه إليها من نقد ، ويقدر ما أسدته إليه من
حريات وما أتاحت له من فرص . وكان يبتسم ساخراً من ميل بعض أتباعه
للدعوة إلى « العودة إلى الطبيعة » ، وقد وقف من أنستانس ومن الكلبيين نفس
الموقف الذى وقفه فلتيير من روسو فيما بعد - وهو أن الحضارة ، رغم عيوبها
الكثيرة ، كنز ثمين لا يصح أن تتخلى عنه لتستبدل به البساطة الأولية (١٨٢) .
ومع هذا كله فقد كان الأثينيون ينظرون إليه نظرة الريبة والسخرى ؛ فأما

المتمسكون منهم بالدين فقد كانوا يرونه أشد السوفسطائيين خطورة ؛ لأنه وإن راعى ما في الدين القديم من أسباب المتعة والمسرة ، رفض التقاليد المرعية ، وأراد أن يخضع كل قاعدة من قواعده إلى حكم العقل بعد تقص وفحص ، وأن يقيم قواعد الأخلاق على أساس ضمير الأفراد لا على أساس خير المجتمع أو أوامر الآلهة ؛ و انتهى به الأمر إلى تشكك ترك العقل في حال من الاضطراب زهعت كيان كل عادة وكل عقيدة . وكان الذين يمجدون الأيام الخوالي أمثال أرسطوفان يعززون إليه كما يعززون إلى پروتاغوراس ويورپديز زعزعة أركان الدين ، وقلة احترام الصغار للكبار ، والانحلال الخلقي عند الطبقات المتعلمة ، وفوضى الزوابة التي كانت تقوض أركان الحياة الأثينية . ولقد كان الكثيرون من زعماء الحزب الأبرجكي من تلاميذ سقراط أو من أصدقائه ، وإن كان هو نفسه قد أبى أن يؤيد هذا الحزب ؛ ولما أن قام رجل منهم يدعى أفريتياس وقاد الأبرجكيين في ثورة بسطوا خلالها عهداً من الإرهاب الوحشي ، اتهم الديمقراطيون أمثال أنيتوس ، وملاتوس سقراط بأنه العقل المحرك للرجعية الأبرجكية ، وأجمعوا أمرهم على إبعاده عن مجرى الحياة الأثينية .

وأفلحوا فيما أجمعوا أمرهم عليه ، ولكنهم لم يفلحوا في القضاء على ما كان من نفوذ لا حد لقوته . ذلك أن الطريقة الجدلية التي تلقاها عن زينون انتقلت منه عن طريق أفلاطون إلى أرسطاطاليس فحولها هذا إلى نظام منطقي بلغ من الكمال درجة استطاعت بها أن تبقى دون أن يطراً عليها تغيير ما تسعة عشر قرناً كاملة . أما العلم فقد كان له فيه أثر صار ؛ ذلك أنه حول الطلاب من البحث في العلوم الطبيعية ، كما أن نظرية الغرض الخارجي لم تكن من العوامل المشجعة للتحليل العلمي . وربما كان لتزعة سقراط الفردية والذهنية في علم الأخلاق بعض الأثر فيما أصاب الأخلاق في أثينة من انحلال ، ولكن رفعها من شأن الضمير ، وقولها إنه أعلى من القانون ، أصبحت من العقائد الجوهرية في الديانة المسيحية . وقد انتقل الكثير

من آرائه على أيدي تلاميذه فأصبح مادة لجميع الفلسفة الكبرى في القرنين
التاليين . وكان أقوى أسباب نفوذه هو المثل الذي ضربه للناس بحياته
وأخلاقه ، فقد أضحى في التاريخ اليوناني شهيداً وقديساً ؛ حتى لقد كان
كل جيل يبحث عن مثل أحلى للحياة البسيطة والتفكير الجريء يعود إلى
الماضي ليستمد من ذكرى سقراط غذاء لمثله العليا ، وفي ذلك يقول
أكسانوفون : « كلما فكرت في حكمة الرجل ونبل أخلاقه رأيت أن ليس
في مقدوري أن أنساه أبداً . أو أن أحاجز نفسي عن الثناء عليه حين أذكره ؛
وإذا كان من بين أولئك الذين جعلوا الفضيلة غايتهم إنسان قد اتصل بشخص
أكثر معونة له في هذا الغرض النبيل من سقراط ، فإنني أرى أن هذا الرجل
خلق بأن يعد أسعد الناس على الإطلاق » (١٨٣) .